سلسلة كتب مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية

جماعة نشر الثقافة
بالاسكندرية

من الأعماق

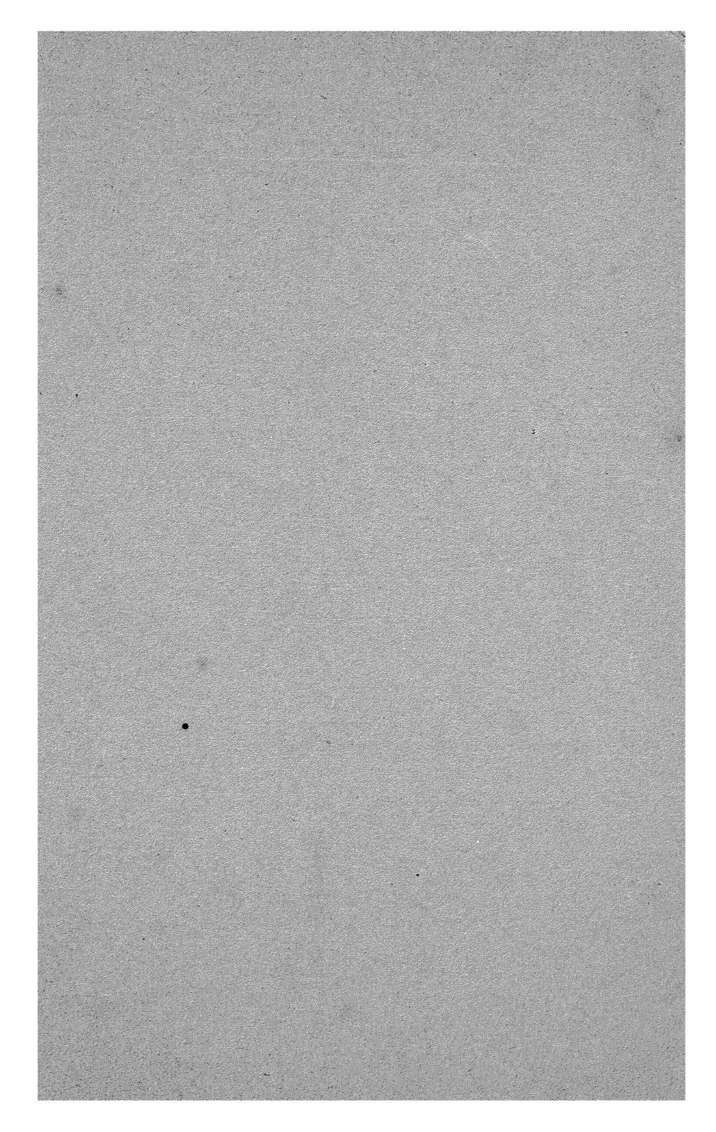
صور من الحياة المصرية

بقلم
عبد العزيز عمر ساسي
ليسانسيه فى الحقوق

وبه مقدمة
للدكتور محمد حسين هيكل بك

الثمن ٦ م

١٣٥٢ - ١٩٣٣



سلسلة كتب مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية

جماعة نشر الثقافة
بالاسكندرية

من الأعماق

صور من الحياة المصرية

بقلم
عبد العزيز عمر ساسي
ليسانسيه فى الحقوق
بمصلحة الجمارك

وبه مقدمة
للدكتور محمد حسين هيكل بك

١٣٥٢ - ١٩٣٣

تقـــديم

للدكتور محمد حسين هيكل بك

مجموعة الأقاصيص التى أقدم اليوم للقارىء ذات طابع خاص يلفت النظر ويدعو الى التفكير . طابع خاص يميزها عن أكثر الأقاصيص التى تنشر اليوم وتكاد تستأثر بميدان النشاط الأدبى فى هذه الفترة من حياة كتابنا وأدبائنا . فأكثر هذه الأقاصيص يبدو فيها أثر المحاكاة للأقصوصة الغربية واضحاً جلياً . وأنت لتكاد تحس إذ تقرأ بعضها وكأنه مترجم بتصرف ليوافق مزاج قراء العربية ، ولتكاد تحس فى أكثرها أن كتابها يحاولون بعقول غربية أن ينشئوا أدباً مصرياً . أما فى مجموعة الأستاذ عبد العزيز عمر ساسى هذه فأنت تشعر إذ تقرؤها بالطابع المصرى فى صبغة الوقائع وفى تحليلها وفى العواطف التى تمليها وفى الأسلوب الذى ينتظمها ويكسوها . فالأسلوب مصرى تظهر فيه بساطة الحياة المصرية ووضوحها وانفساحها وشدة ضيائها . هو أسلوب بسيط كل البساطة سليم فى بساطته واضح لا تعقيد ولا ابهام فيه . منبسط يتناول تحليل الوقائع والعواطف تحليلا سلساً خالياً من كل عنف تظهر فى

ضوئه دقائق الحياة البسيطة والصغيرة بنفس الوضوح والهدوء الذى يهز قلبك حين تنتهى الى عقدة الأقصوصة ، وحين تنحل هذه العقدة أمامك فى مأساة فاجعـة ، أو فى حب هزيم ، أو فى وفاء أشد من الحب قسوة .

وبساطة أسلوب هـــذه الأقاصيص وانبساطه ووضوحه يتفق كل الاتفاق والوقائع التي يجعل منها المؤلف قوام كل واحدة من أقاصيصه . فكلها وقائع بسيطة كوقائع الحيـــاة التي تراها أعيننا كل يوم . لا تعمل فيها ولا تلفيق أمور مما يندر فى هذه الدنيا ، ولا فواجع قاسية تجىء أثراً لعواطف عاصفة . بل هى الحياة كما تراها أنت وأراها أنا ، وذكريات مافى الحياة كما يذكرها الناس جميعاً . وهى لذلك تتصل بجمهرة الناس من مختلف الطبقات فى حياتهم العادية وليست الأسرار الغامضة التى ينشىء الخيـال ، وليست الحالات النفسية المريضة مما يحلو لبعض كتاب الغرب أن يجعلوه فى هذا الجيل موضع بحثهم ونظرهم . وكما تخلو الوقائع من التعمل والتلفيق فسردها يخلو كذلك من التعمل والتلفيق . هو سرد سلس فياض بالحياة مرن مرونتها . وهو إذ يكشف عن نفس ابطاله حين تصرفهم الحياة فيتأثرون بها ويؤثرون فيها يعني باهتزازات النفس وتدرج العواطف جزراً ومداً عناية تجعلك كما يجعلك أسلوب الكاتب تتابع هؤلاء الأبطال وأكثرهم من عامة الناس كما يتابع القراء عادة ذوى البطولة الفخمة فى الجرأة والشجاعة ، أو فى الحب ولذته وعذابه ، أو فى الجريمة الفـاتكة

السفاكة أو فى المجـــانة واللهو الوضيع . تتابع هؤلاء الأبطال وأكثرهم من عامة الناس وأكثر مايقع لهم من الأحداث هو ماتقع عليه العين كل يوم ؛ لأن الأستاذ ساسى يرفـع هـؤلاء الأبطـال ومايصيبهم فى الحياة الى مستوى الفن الجميل فيغمرهم لذلك بضياء يجعلك تراهم وكأنهم أشخاص غـــير الذين ألفت ، وكأن أعمالهم على ماوصفت فى هذه الأقاصيص قد اكتست من الفن بثوب أحالها الى لون غير ما ألف الناس أن يروها به فى واقع الحياة .

فهذا شاب يخطو الى الثلاثين من العمر قد شيع جنازة فلما تمت طقوسها ألفى نفسه على مقربة من قبر أبيه الذى مات منذ اثنتين وعشرين سنة فدلف الى القبر فوقف عنده يذكر برّ أبيه به أيام حياته وينتهى بأن يطلب الى فقيه أن يتلو لروح هـــذا الأب سورة يس . ماذا فى هذه الوقائع ؟ لاشىء غير عادى وغير متعارف . لـكنك إذ تقرؤها مبسوطة بتصوير الأستـاذ ساسى تراها وقد استحالت شيئاً آخر وقد صارت قطعة أدبية جديرة بأن يتلوها الانسان وان يعود الى تلاوتها . فهذا الوصف للجنـازة وهذا التصوير الدقيق للمشيعين فى وجومهم أول الأمر تأثراً برهبة الموت ، وفى مزايلة هـذه الرهبة نفوسهم وما يزالون يتابعـون النعش فى مسيرته ، وهذا النسيان لعظة الموت نسياناً تسكبه الحياة فى نفوس الأحياء وكأنه بعض غرائزها . وهذا الانعطاف الى قبر الأب الذى توفى منذ اثنتين وعشرين سنة ، وهـذه الوقفـة

الخاشعة الطويلة أمام القبر ، وهذا الاتصال الروحى بين الأب والابن بقدر ما كان بينهما فى الحياة من وشائج مودة ومحبة ، وهذا الزمن الذى ينقضى فى الاستذكار دون أن يشعر الابن بمره - هذا كله يسرده المؤلف فى قطعته الأولى سلساً سيالا تلتهمه العين وتهتز معه النفس ويسرى منه الى القلب تيار يشرك القارىء مع المشيعين ومع الابن والأب ويجعله يرى فى هذا الحادث الذى يقع كل يوم حياة غير التى ألف ، هى حياة الفن الجميل الذى يضاعف الحياة فى كل ما تصل به .

وهذا شاب وفتاة تلتقى نظراتهما لتقابل نافذتى مسكنيهما فيتحابان . ثم تخبره أنها متزوجة وتلح مع ذلك فى أن تكون صديقته وتلح فى أن تلقاه . ويتلاقيان ويلقى اليها أنهما لن يستطيعا أمام الله وأمام ضميرهما خيانة زوجها ثم ينكشف الأمر بعد ذلك عن أن الزوج صديقه ؛ وتعرف الفتاة ذلك فتأخذ نفسها بأن تحب زوجها وأن أرهقها حبه من أمرها عسراً . ولعلها إنما حرصت على أن تحب فيه صديقه الذى شغف قلبها حباً .

ماذا فى هذه الوقائع أيضا ؟ لاجديد الا أن يكون مالا يألف الناس فى هذا الزمن من التعفف عن الدنيئة . ولكن اقرأه فى قصة (قلبان فى سعير) وإنك لواجد من جمال العرض وحلاوة الأسلوب وانبساطه ، وخلوه من المحسنات اللفظية التى يقبح بها أدب هذا العصر مالا أملك سرده واختزاله فى هذه المقدمة .

و « سيد القرية » هذا العمدة المزواج الذى استنفد شباب زوجتين ثم جاء (بسميرة) المتعلمة الشابة الجميلة زوجاً ثالثة فلم تطق المقام معه فثارت به وخرجت عليه فطلقها وتزوج من رابعة . لست أدرى كيف أصف تصوير الأستاذ ساسى فى هذه الأقصوصة لنفسية رجل الأعيان هذا ولداره وأزواجه وامرأة أبيه تصويراً بلغ من الدقة ما جعلنى وأنا أقرأ الصحف العشرين التى استغرقتها هذه الأقصوصة أشعر كأننى أرى وأسمع خلال ثلاثة الأشهر التى أقامتها (سميرة) فى الدار كل ما كان يدور فيها بل أرى وأسمع ماقبل ذلك وما بعده بدقة المشاهد الذى يعنى بأن يقف على كل مايقع تحت نظره .

و « مصطفى» الصغير بائع الصحف لأنه لم ينجح (سمكرياً). هذا الولد الذى نشأ بأعين أبويه، وكان أبوه معلماً يبيع الصحف وكيف كان اضطرابه أول بيعه الصحف ، وكيف نجح بعد ذلك وكيف دهمته السيارة يوماً فحطمته فمات ؛ فهوى بقلبى أبويه الى أسحق قرار حتى عادت أمه فحملت ثم وضعت غلاماً أسمته مصطفى فأنسى الجديد القديم .

و « بنت البك » الغنية التى تزوجت من موظف أقام معها وأمها فى بيتها فخيل اليها أنها تستطيع أن تحتفظ من حريتها متزوجة بمثل ما كان لها من حرية قبل الزواج حتى ضاق بها زوجها ذرعاً فعاد إلى بيت أهله . وطال انقطاعه وزاد هذا الانقطاع همه ولكن الزوج كانت أشد هماً حتى لقد رأته يوماً

فى المسرح فلما خرج كانت هى التى تبعته وجعلت تناديه فلا يجيب فانتهت بأن وصفته بأنه خسيس فرأى نفسه منتصراً فعاد إليها وعادت هى الى حسن معاملته وأنعمت عليهما الحياة من بعد بما فى حياة الاتفاق بين الرجل والمرأة من سعادة وهناء .

والمريض الذى أحب ممرضته وأحبته ثم نقل من القاهرة الى الاسكندرية وأراد أهله أن يزوجوه من ابنة موظف كبير يتسلق على أكتافه الى المناصب العليا حتى اذا جاءته رسالة من الممرضة (سامية) تعيد عليه انها تحبه هز الحب والوفاء فيه عاطفة النخوة فتزوجها .

و « الأم » الشابة التي يموت زوجها تاركاً لها الفقر وولدها فتستعين بأمها على تربيته ثم تكره على الزواج من عجوز غني يمقته ابنها ويمقت هو ابنها . وكيف تنتهى المهنة الوضيعة بالفتى الى الانتحار.

ذلك كله مصرى . وذلك كله سلس الأسلوب مضىء بكل مافى الحياة المصرية من ضياء ، وذلك كله سيال سهل ينحدر اليك فيض مافيه من عواطف ومن صور ومن أفكار فيضاً يجعل الأسلوب لباساً شفافاً يزيد العواطف والصور والأفكار بهاء وجمالاً .

وهذا هو الأدب القومى . أو هذا بالأحرى صورة من صور الأدب القومى الكثير الألوان الغزير المادة ، القوى التيار المتدفق بكل ما تتدفق به مصر من حياة تتسابق مع مياه نهرها المبارك وعلى شاطئيه الى حدود الصحراء منذ الأزل

وسيظل كذلك الى غاية حدود الأبد .

وهذه الأقاصيص ما تزال بعد الثمـــرة الأولى للأستاذ عبد العزيز عمر ساسى . فمن حق الأدب القومى أن يتطلع اليه كنصير من أكبر أنصاره ، وأن يعلق على جهوده الصادقة لهذا الأدب في المستقبل مايحقق الكثير من ألوانه ، وما يعيد بذلك الى الأدب من مظاهر الحياة ما يتجلى فى وضوح ذاتية الكتاب وفى حسن ذوقه الحياة وفى تحدثه اليها وحديثه عنها ، لافى نقل ما كتب الغير وما تحدث به ؟

محمد حسين هيكل



كلمة

للأستاذ خليل شيبوب

رئيس جماعة نشر الثقافة

أن جماعة نشر الثقافة بالأسكندرية لتغتبط كل الاغتباط بل هى لتفخر كل الفخر بأن تقدم إلى جمهرة القراء هذه المجموعة الفذة من الأقاصيص المصرية البحتة لناسج بردها الأستاذ عبد العزيز عمر ساسى رئيس لجنة النشر فى الجماعة والعضو المؤسس الذى لا يزال إلى اليوم تنهض الجماعة فى كثير من شئونها على ما يبذله من غيرة ونشاط فى مختلف هذه الشئون .

ولا نرانا بحاجة إلى التدليل على مافى هذه الأقاصيص المصرية من مشاهد واقعية ، وصور صحيحة وأوصاف بارعة ، يقتطعها المؤلف من الحياة اليومية الشاملة ، ويقرها فى تناسق وتساوق يحقق بهما فكرة الأدب القومى تحقيقاً بالغاً . أجل لقد تفضل حضرة الأديب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل بك فأشار فى اسهاب واستفاضة إلى هذه الناحية الخاصة من المجموعة فى المقدمة الشائقة التى صدرت بها ولكن لايفوتنا أن نشير إلى الناحية الفنية أيضاً من نفس المؤلف .

ان من يجالس الأستاذ عبد العزيز عمر ساسى يتبين سريعاً من حديثه الطلى ووداعته نفساً بعيدة القرار واسعة الآفاق ، تتسع لكل ما يمر بها فتختزنه حتى إذا نضج فيها واستفاد منها كأنما صار جزءاً منها ، أرسلته فى بيان هادىء متصلا بسواه مما سار سيرته فيها فاذا بهذه النفس مستودع للحوادث العديدة التى يمر بها العاديون مر الكرام بينما هذه الحوادث تنعكس عليها من نفس الأستاذ ساسى أشعة فنية باهرة تصلها ببعضها وتكون منها وحدة مرتبطة يبقى الاهتداء اليها موضوع الاندهاش .

إن فكرة الأدب القومى مغـــرية كل الاغراء ولكنها لا يجب أن تعالج إلا بالأيدى القوية والنفوس الزاخرة بألوان الفن مادمنا فى فجر النهضة لأن كل محاولة مبتورة تجنى على الفكرة ولا تخدمها . فاذا كانت نفس الـــكاتب مشبعة بروح الفن والأدب فانها تعمل فى هذ المجال عملا محموداً مثمراً بنتائجه لما تختط من نهج و تفتتح من سبيل .

وإذا قلنا أن هذه الفكرة قد حققها صديقنا الأستاذ ساسى بكل مافى نفسه من خبرة وفن وأدب ، فنكون قد قررنا حقيقة بادهة يتبينها القارىء بمجرد مطالعته لأى أقصوصة من هذه الاقاصيص . أن فى بعضها عاطفة متدفقة بأتزان يصح أن تكون موضوعاً لقصيدة قصصية من الطراز الأول مثل قصة "أبى" . ومنها ما تناولها بريشة الرسام مثل "سيد القرية" . وتمتاز جميعها بالحنان الذى يشعر به المؤلف نحو أشخاص أقاصيصه فهو يحبهم

ويعطف عليهم ولا يستنكف أن يتخيرهم من الطبقة الدنيا مثل قصة "مصطفى". كما يحسن تخيرهم من الطبقة العليا مثل قصة "بنت البك". ولا نود أن نكشف للقارىء عما فى كل قصة من معانٍ جليلة بل نحب له أن يتبينها بنفسه.

هذا وأن الجماعة ليسرها أن تتقدم بهذه المجموعة القصصية وتأمل أن تصادف من جمهور القراء تقديراً صحيحاً يشجع على تحقيق أغراضها من اصدار الكتب القيمة فى مختلف الفنون.

خليل شيبوب



الاهداء

الى روح أبي الذى لم يصحبنى فى مرحلة الحيـــاة أكثر من ثمانى سنوات .

عبد العزيز عمر ساسى

أبى

ذهبت بالأمس أشيع رجلا من جيرانى الى مثواه الأخير وقمت مع المشيعين من مجلسنا أمام بيته نتبع الجسد المحمول على الأكتاف تقرع اذاننا اصوات الباكيات وهن يطللن من النوافذ . وسار الجمع يخيم عليه السكون وكل على وجهه من الحزن أثر يتفاوت فى قوته ، فالأهل الذين تقدمونا كان منهم من يبكى بحرارة ومنهم من جفت مآقيه من الدمع وأحمرت عيناه فراح يمشى مطأطىء الرأس وئيد الخطى . وارتسمت على وجوه الباقين سحابة من التأثر أخذت تقشع شيئاً فشيئاً كلما جد بنا السير . وبعد دقائق زال السكون ومالت الرؤوس على بعضها البعض وطفق الناس يتحدثون . وكان بجانبى رجل من أهل الحى جاء مثلى يواسى أهل المتوفى فى مصابهم رأى أن يتحدث الى حتى يخفف عن نفسه سأم الطريق الطويل فأعرته سمعى مكرها وان كان الرجل ليس بالوحيد الذى كان يتكلم . ودار الحديث عن الدنيا وشئون الدنيا المكربة ومتاعب الحياة . والناس فى معرض الموت تذكر

الدنيا بالسوء وتنعتها بالحقـــارة والرخص وتغرى الحى بان يزدريها بزخرفها الـكاذب ويبتغي الراحـــة والنعيم فى الآخرة البـاقية ، حتى اذا زالت عظة الموت هبط ذلك الحماس وعادت الدنيا فى عيونهم رائعة حلوة وراحوا يتكالبون على البقاء فيها .

ودخلنا المقـــبرة بعد ان انهكنا التعب فسكنت الأصوات وطالعتنا القبور بصمتها الأجـــوف وهيا كلها البيضاء المنتصبة فى كل مكان . وكانت الشمس قد مالت الى الغـــروب والفناء يرفرف على تلك البقعة المترامية الأطراف ويبعث فى النفوس رهبة ووحشة . وكانت الريح تعبث بأشجار الصفصاف الفارعة وتهز من أوراقها الجـافة فتنبعث منها أصوات خافتة كالأنين .

وضع الرجل فى لحده وأخـــذت الناس تنصرف بعد أن قدمت العـــزاء لأهله . ورأيت نفسى على مقربة من (مدفن) العـــائلة فقلت أنها لفرصة سانحة اغتنمها لزيارة موتاى فقد أهملت زيارتهم من سنوات بعيدة فالمرء فى تيار الحيـاة مغمور مطمور لايكاد يعنى بأكثر من حاضره .

دخلت (المدفن) فألفيت أمامى قبر أبى المرتفع . تقدمت نحوه فى خشوع وأخذت فى قـــراءة الفاتحة ثم وقفت بجانبه لأستريح من عنـاء السير . أسندت مرفقى على حافته واعتمدت رأسى على يدى . رأيت أمامى النصب الرخامى الذى نقش عليه الاسم وتاريخ الوفاة . وكانـــ ٩ مارس سنة ١٩١٠ . رددت

الرقم فى نفسى وعجبت أن أصبح بينى وبين ذلك اليوم اثنان وعشرون عاماً . اذن كنت فى الثـــامنة من عمرى يوم جئت معهم ورأيتهم يضعونه فى ذلك القـــبر الذى ظل قائماً الى الآن . ثارت ذكراه فى نفسى وشعرت بخجل يتملكنى كأن روحه قام يؤنبني على تركى زيارته ....

وأول مايرتبط بذكراه بيت نشأت فيه كان واسع الرحاب فسيح الجنبات تقوم على جوانبه غـــرف متعددة وكان صحنه مكشوفا أرى منه السماء والشمس والنـــور . كنت أرتع فى ميدانه الذى كان يبدو أمامى أكثر اتساعا من أزقة الحى بمفردى ، فلم أر لى رفاقاً من سنى بين أهـــلى الذين كانوا معنا فى ذلك البيت العتيق ، وكان لى كرباج عزيز لا يفارق يدى الا حين تحملنى أمى الى الفراش ، وكنت اتخـــذ من الأعمدة الرخامية التى تقوم على جوانب صحن الدار خيلا أطوقها بحبل قصير امسك به كعنان الحصان ثم الهبها بكرباجى وأنا أدور حولهـا أطرقع بشفتى كما كنت أرى الحـــوذى يفعل حين يسوق خيله . فاذا زهـــدت اللعب وتعبت من ضرب جيـــادى رحت أجلس بجانب أمى على بساط صغير كانت تضعه أمام غرفنا تحت أشعة الشمس لاشاركها فيما تفعـــله . كانت أحياناً تنظف خضراوات العشاء فكان يسرنى أن يكون عشاؤنا فولا أخضر أو خرشوفاً فكنت أعمد الى

قرون الفول اللينة فاهصرها باصابعى واستخرج حباتها الخضراء وأضعها فى الاناء الذى أمامها . ولكن ما كنت التهمه منها يربو كثيراً على ما كنت أضعه فى الاناء . أما الخرشوف فكانت لى منه واحدة كاملة . وكانت أناملى لا تقوى على نزع أوراقها بنفسى فكنت أعهد الى أمى بتلك المهمة وافتح لها حجرى فتملأه بأوراق الخرشوف وابدأ فى قضمها بأسنانى على مهل .

وعند ما يقترب الظلام أنتظر الرجل الطويل القامة الممتلىء الجسم ذا الوجه الأبيض الضاحك . ذلكم هو أبى . كنت ألمحه من صحن الدار مقبلا نحو غرفنا فأندفع نحوه وأمسك بقفطانه الحريرى اللامع واندس تحت جبته وتمتد يداى الى جيبه الكبير . فهناك أجد البندق المقشور أو الفول السودانى وقلما يخيب بحثى فهو دائماً يحمل لى أشياء حلوة . كان يضحك منى وأنا أشب على أطراف قدمى لتصل يدى الى أعماق جيبه فيميل قليلا نحوى حتى تعثر أصابعى بضالتها المنشودة . كنت حينذاك فى السادسة من عمرى وكان لى اخوة واخوات كثيرون ولكنهم كبار . وكان أبى يحبنى فقط لأنه كان يجلسني بجانب ركبته أو فى حجره اذا ماجلسنا للطعام ولا يضع واحداً منهم مثلى . ثم يقتطع اللقمات الصغيرة ويغمسها فى الآنية ويحملها الى فمي قبل فمه . واذا كان الطعام ساخناً فهو

ينفخ فى اللقمة قبـــل أن يضعها فى فمي . وأنا طوال النهـــار آكل بيدى بل ولا أرضى لأمى بأن تغمس لى لقماتى ولكن حين أجلس اليه هو يسرنى كثيراً أن أتناول الطعام من يده .

ويوماً رأيتهم يخرجون أمتعتنا من الغرف الى ساحة الدار ثم أخذوا يضعونها على مركبات كبيرة وقالوا أننا سننتقل الى بيت جديد . وان كان قد سرنى شيء من ذلك الانتقال فهو أننى جلست على احـــدى المركبات فوق الامتعة وصرت أضرب الهواء بكرباجي كأننى أسوق حصان المركبة بنفسى . والبيت الجديد لم يعجبني . لم أجد له ساحة كبيرة أرتع فيها ولا أعمدة ألجمها وأضربها بسوطى . لماذا تركوا ذلك البيت الرحب الذى تغمره الشمس والنور وجاءوا الى هـــذا البيت الضيق المظلم ؟ . قلت لأمى انى أريد أن أذهب لألعب هنالك ولكنها قالت انك لا تهتدى الى الطريق وهم قد غضبوا من أقاربى الذين تركناهم فى ذلك البيت وسوف لا يذهبون اليه مطلقاً .

كنت أرى أمام بيتنا الجـــديد أطفالا كثيرين يجتمعون فى الصباح ثم يدخلون بيتاً صغيراً بجانبه نخـــلة وشجرتان من التـــين ثم أراهم يعودون الى الظهور فى فترات متعاقبة ثم يتركون الشارع دفعة واحدة فى نهـاية النهار . وكنت قد بدأت أحس مللا من جلوسى بمفـــردى فى البيت لأن أمي كانت تمنعنى عن اللعب خارج الدار فوددت ان أندمج فى صحبة

هؤلاء الأطفال . وكلما هممت بالانضمام اليهم استشعرت خوفاً
من شيخ كان يظهر بينهم وفى يده عصا طويلة . ومضت
أيام وازدادت رغبتى فى مخالطتهم فكاشفت أمى ببغيتي فضحكت
وقالت هذا هو (الكتاب) أتريد أن تذهب اليه ؟ قلت
أريد أن أكون مع الأطفال . وعارض أبى ولكنها قالت
ان الولد شديد الرغبة فى الذهاب فدعه يتسلى مع الصغار .
وصحبنى أبى الى تلك الدار وأنا أقفز أمامه من الفرح .
وفجأة رأيت أمامى شيخاً عظيم الجثة طويل اللحية عبوس
الوجه قاسى النظرات فأمسكت عن القفز وانكمشت فى
ثياب أبى . لم يعجبني ذلك الرجل لأنه ليس كأبى حلوا باسم
الثغر وأحسست بأنى أكرهه . وسمعت أبى يوصيه بى خيراً
وهو ينتزعنى من يده ويسير بى ليجلسني بين الأطفال .
عقد الخوف لسانى فلم أستطع مناداة أبى وهو ينصرف ليأخذنى
معه . تلفت حولى فاذا الأطفال كلهم سكوت وقد عقدوا
أيديهم فوق صدورهم ففعلت مثلهم وعيناى لاتفارقان
الشيخ ذا العصا الطويلة . ولكن لماذا لا يلعبون كما رأيتهم
فى الشارع وما شأن هذا الرجل بهم . هل هذا الشيخ هو
(الكتاب) الذى قالت عنه أمى ؟ أنني كنت أريد أطفالا
فقط ألعب معهم ولم أك أحسب أن معهم شيخاً يلازمهم .
وقطع تصوراتي صوت العصا تهوى على لوحة خشبية فوق

الحائط والرجـــل يصيح : اقرأ ياولد . صاحت الأولاد فى صوت واحد وأخذت تتلو عبارات لم أفهم منها شيئاً . كنت أود أن أعـــرف مايقولون لأشاركهم فى الصياح لأننى كنت الوحيـد الذى ظل صامتاً . وبعد قليل دق الشيخ جرساً صغيراً فهبت الأولاد عن مقاعدها واندفعت الى الخـــارج وهى تصيـح : فسحة . فسحة . خـــرجت معهم وسرورى عظيم لخلاصى من تلك الجلسة التى قيدت يدىّ ورجلىّ عن الحركة . سرعان ما اتصلت بالاولاد ولعبت معهم ولـكن اللعب لم يطل اذ سمعنا الجرس يدق ثانيـــة فعادت الأولاد الى الحجرة وأنا معهم . وبعد ان سمعنا صوت المؤذن فى (الزاوية) القـــرية أطلق الشيخ سراحنا للمرة الثانية . وقبل أن أخطو الى الخارج أمسك بيـــدى وقال اذهب الآن وتناول غـــداءك ثم عد واحضر من أبيك قرشين ثمناً للوح والأقلام والطباشير . اذكر أننى لم أفه بكلمة بل هززت رأسى ويدى مرفوعة أمام وجهى كأنى أدفع عن نفسى شراً يكاد يلحق بى . عـــدت الى أمي فتلقتنى فرحة وحملتنى بين ذراعيها وقبلتنى مراراً ثم قالت :

ــ أمسرور أنت من الـكتاب ؟ فتعلقت بعنقها وقلت :

ــ انه رجل عجوز له عصا طويلة ولست أحبه .

فقهقهت ضاحكة وقالت ــ ان هـــذا العجوز هو صاحب الـكتاب ياعبيط .

ولكننى لم افهم ذلك التفسير منها .

واليت الذهاب الى (الكتاب) كما تسميه أمي . وكان أبى يعطينى فى الصباح (عشرة) لأنفقها على نفسى (هي قطعة من النقود النحاسية فى حجم النصف الريال وتساوى مليما وربع المليم) ولكن الشيخ كان يأخذها ويعطينى بدلها بضع بلحات خضر أو شيئاً من التين الذى كان يجنيه من الشجر المغروس بجانب الكتاب . ولكننى ما كنت أحب تلك الأشياء فاذا رفضتها أعطانى أصبعاً من الطباشير . وكان بالشارع باعة كثيرون يحملون الحلوى والحمص ولكن الشيخ كان يمنعنا عن الشراء منهم ولا يرضى أن ننفق نقودنا إلا فيما يبيعه لنا بنفسه . وقلت فى نفسى سوف لا أحضر معى نقوداً وسأبقيها لدى أمى حتى أعود من الكتاب فاشترى ما أشتهيه . وفى الصباح لقيني لدى الباب ومد يده كعادته ليأخذ (العشرة) . فقلت ان أبى لم يعطني شيئاً فحملق فى وجهى بعينيه المحمرتين وكأنه لم يصدقنى فأخذ يقلبُ جيوبى بعنف ولكنه لم يعثر على شيء . هز عصاه وقال الويل لك ان لم تحضرها بعد الظهر . وكان له ما أراد .

زدت كرها لذلك الشيخ بعد أن رأيته بالأمس يضرب أحد الأولاد لأنه امتنع عن الحضور الى الكتاب ، فقد جاءت بنت صغيرة وقالت ان محمداً عاص اليوم ولا يريد الحضور فبعث الشيخ بولدين كبيرين حملا الطفل العاصى

وجاءا به الى الكتاب وهو يبكى ويجد فى الخلاص منهما .
جاء الشيخ (بالفلقة) ووضعها الولدان فى قدمى الطفل بعد ان خلعا حذاءه وانهال الشيخ ضرباً على قدميه فعلا صياحه . أمرنا أن نقرأ فقرأنا جميعاً بصوت مرتفع ذهبت معه صيحات الطفل . ولما انتهى من الضرب نظر الينا مهدداً وهو يقول : هذا جزاء من يتخلف عن الحضور .

تلك الظواهر الجديدة من جلسة مقيدة ونظرات فيها الوعيد والنذير وحرمان من التمتع بالفلوس ثم أخيراً ذلك الضرب المبرح . هذه كلها أزعجتنى وبغضت لى ذلك الكتاب وأسفت ليوم طلبت فيه الذهاب اليه . قصصت لأمى حادثة الولد وقلت أننى لاأبغى الذهاب الى الكتاب بعد اليوم ولكنها قالت ان الشيخ سوف يبعث من يأخذك من هنا ويضربك كما ضرب الطفل العاصى . خفق قلبى وتمثل لى الشيخ بعصاه (وفلقته) فبكيت وقلت سوف أذهب كل يوم . . .

وكنت فى يوم آكل كعكة أحضرتها من البيت ودسستها فى جيبى لالتهمها خلسة فى الفسحة نخطفها ولد من يدى فجريت خلفه وأمسكت بخناقه فضربني . انشبت أظافرى فى وجهه فسالت دماؤه وجرى الى الشيخ باكياً . لم أكن لأظن أننى ارتكبت ذنباً لأن الولد هو المتعدى ولكن الشيخ أشار الى أحد الأولاد الكبار فاحتضني فى صدره ونزلت عصاه على كفلى مراراً فارتفع صوتى بالبكاء من شدة الألم . وما كدت

اخلص من ذراعى الولد حتى أندفعت نحو البـــاب وجريت الى بيتنا . كان أبى مازال هنـاك فدهش لرؤيتى وأنا لا أنفك عن البكاء وأتحسس مواقع الألم بيدى . أخـــبرته بصوت متقطع بأن الشيخ قد ضربنى لغير ذنب فثـارت ثائرته وأخذنى من يدى وذهب بى الى الكتـاب . وما كاد يلمحه الشيخ وهو على تلك الصورة من الغضب حتى انكمش فى أحـــد أركان الغرفة . صاح به والدى قائلا :

— " ياجبار ألا تتق الله فى هــؤلاء الصغار ؟ اذا كنت لاتعرف ان الضرب مؤلم فدعنى أريك ذلك . "

ثم تناول لوحاً من الالواح الخشبية الموضوعة الى جانب الحائط وهجم على الشيخ يريد أن يلطمه به . هرب الشيخ وهو يردد قوله : " ان تربيـــة الأولاد واجبة وان عصـا المعلم من الجنـــة . "

رمى أبى باللوح على الارض وأخذنى معـــه . وكان ذلك آخر عهدى بكتاب الشيخ مبروك . . .

لم يطل فرحي بالبطالة والخلاص من الكتاب فبعد اسبوع واحد بعثوا بى الى كتـاب جـــديد مع ولد من جيراننـا فى البيت . طفقت أبكى قبـــل أن أغادر البيت وتصورت شيخاً آخر ينتظرنى بعصاه ، ولـكن أمى أقسمت بأن صاحب الـكتاب رجـــل طيب واذا ضربنى فسوف لا تبعث بى الى كتاب بعد اليوم . ورأيته رجلا بلا لحيـــة وكان أعور ولـكنني شعرت

بانه أفضل من الشيخ مبروك . وكان البيت يبعد كثيراً عن الكتاب وأشفقت أمي ان أقطع تلك المسافة الطويلة أربع مرات فى اليوم ذهاباً وجيئة فكانت تضع لى غدائى فى حقيبة من القماش تعاق بكتفى وتتدلى من تحت ابطي وبها لوح (الاردواز) وكراس وقلم . كنت اتغدى فى الكتاب مع ابن جيراننا الذى يصحبنى دائماً ونخلط مانحمل من طعام ونأكله سويا ثم ننفق فلوسنا فى شراء الحلوى ، لأن الشيخ صالح الطيب لم يكن يأخذها منا . سررت من شيخنا لأنه لايستعمل الفلقة ولا يسبنا ولا يشتم آباءنا . واعطانى لوحاً من الخشب به بعض أحرف الهجاء لأحفظها . ورأيت الأطفال فى الفسحة يغسلون الألواح (بالطفل) الاصفر ويضعونها فى الحارة بجوار الحائط لتجف . فأخذت لوحى وفعلت مثلهم فتلوثت يداى وملابسى (بالطفل) ورآنى الشيخ فانتهرنى لغسل اللوح وبه درس يجب ان يبقى حتى أحفظه .

حفظت كثيراً من عبارات القرآن كنت أرددها فى البيت واسمعها لوالدى فيصححها لى ويزيدنى عليها عبارات أخرى . وكان أشد ما يسرنى أن يأمرنا الشيخ بالقراءة معاً فترتفع أصواتنا فى نغم موزون يتردد فى أنحاء الغرفة وكنت أجتهد فى ابراز صوتى على الباقين لأريه أنني أكثرهم حفظاً ولكنه كان يشير الىّ فاخفض من صوتى وفقاً للاخرين .

تضاعف حب أبى لى وهو يرانى أكبر فى عينيه وألم

بالقرآن واقــرأ الكلمات ذات المقطعين . وكنت أراه يجلس بعـد صلاة العصر فى المقهى الذى تحت بيتنا فى صحبة من الشيوخ يدخنون (بالشيشة) فأترك حقيبتي فى البيت واهرع اليه فيجلسنى بجانبه ويدعو الساقى ليأتى لى بكوب من(الشربات) أو عصـير الليمون . وكان يمر بنا بعض باعة (البسكوت) والفول السودانى فاطلب من أبى ان يبتـاع لى منهم . فكان يحـدق فى ثم يأمر البائع باعطائى ما أريده . وفى البيت قال لى لا تطلب منى شيئاً أمام النـاس مادمت تأخذ مصروفك فى الصباح . فلم أعد لذلك بعدها .

وكان اخوتي الكبار الذين بلغوا أضعاف سني يحقدون عليّ لتدللى على أبى وكثرة ماينفقه على . ويقولون مالهذا الولد (الممروع) لايعجبه أحـد فى البيت ، ولماذا هو يجاب الى كل رغباته ومطالبنا نصيبها الرفض ؟ ولكن أمي كانت تبطل دعواهم وتقول انه لايزال صغيراً وقـد كنتم فى مثل عمره أكثر منه تدللا .

وسمعتهم يقولون ان الولد قد كبر ويجب أن (نطاهره) وأمن أبى على ذلك الرأى وأصبحوا يطلقـون على فى البيت اسم (المطـاهر) . وكثيراً ما كنت أسمع أصوات الموسيقى فى الشارع وتأخذنى أمى وتطل معي من النافذة فأرى مركبة مزدانة بالورود والرياحين وفى وسطها طفـل صغير يرتدى ثياباً زاهية مقصبة والى جانبيه طفلان آخران والزغاريد تنطلق

حولها . وقالت أمي ان هذا هو المطاهر الذي يجلس في وسط العربة الأولى . فاذن سوف أجلس في مركبة مملوءة بالورد وسوف تصدح الموسيقى أمامي ؟ فوافرحتاه . . . ولكنها قالت لي سنقيم من أجلك فرحاً كبيراً وانما سوف لاتجلس في العربة المزدانة بالورد فهذه (الزفة) لاتعملها الا الناس الدون أما انت فمن أولاد الذوات الذين لا يأتون بهذه المساخر .

ونشطت حركة البيت وأخذت ترد إلينا الهدايا الكثيرة من أرز وسمن وسكر وأتانا خروف كبير أيضاً واشترت لي أمي ثياباً جديدة وقفطاناً من الحرير الأبيض أخذت تزركش كميه وصدره وحواشيه بالألوان الجميلة . غمرني الفرح وصارت الدنيا لا تسعني . أليست كل تلك الهدايا والثياب لي أنا . أما إخوتي فكانوا يسخرون مني ويعمدون إلى اثارتي ، ولكنهم لابد مغيظون فهم لم يؤت لهم بشيء جديد مثلي . كان البعض منهم يرفع سبابة يمناه ويحز بها سبابة يده الأخرى كأنه يقطعها ، وكانت أمي تنهرهم وتمنعهم عن الاتيان بتلك الحركة أمامي ولكنني لم أفهم مغزى تلك الاشارة .

وقرب يوم الختان والبيت على قدم وساق وجاء (الفراش) وراح يقيم صيواناً أمام البيت وآخر فوق سطحه لجلوس السيدات . وكانت الليلة المنتظرة . وجاء

الكثيرون من أهلى وتناولوا لدينا طعام العشاء . وفى الأمسية ألبسونى ثوبى الحريرى الأبيض وكانت يداى مخضبتين بالحناء الحمراء وأجلسونى وسط السيدات وحولى أطفال عديدون . وكان المكان مزداناً بالازهار والشموع تضىء فى كل ناحية (والعوالم) تغنى وترقص والأهل تزغرد باستمرار .

ونزلت مع الأطفال الى الشارع فرأيت الصيوان قد غص بالناس وفى أحد أركانه (تخت) مرتفع جلس عليه ثلاثة من الفقهاء ينشدون والناس يستزيدون من أناشيدهم . شعرت بتعب من جراء الجهد الذى لقيته فى يومى والضجيج الذى أسمعه فى كل مكان فصعدت إلى بيتنا أبحث عن أمى . وعثرت بها بعد مشقة وعناء فهى كالدولاب الذى لا تهدأ له حركة . احتضنتنى وعيناها يطفر منهما الدمع فأسريت لها برغبتى فى النوم فعجبت لكلامي وقالت ولكن هذه ليلتك فكيف تنام الآن ؟ فقلت انى جد متعب . فحملتنى إلى غرفة قصية وخلعت عنى ثيابي ووضعتني فى الفراش .

برغم تلك المظاهر المفرحة كنت أحس بانقباض صدرى وان هناك حدثاً مبهماً سيقع لى . والاشارات التى كانت تأتى بها الأطفال بسباباتهم أخذت تزعجني الآن . هل سينتهى الفرح بانتهاء الليلة وان ليس فى طيات الغد شىء جديد ؟ هذا ما كنت أرجوه ولكن قلبي الصغير لم يكن يثق بذلك كثيراً .

وفى الصباح الباكر أيقظتني أمى فرأيتها على غير عادتها مصفرة الوجه مضطربة الحركات . ألبستني ثوبى الأبيض ويداها ترتعشان. كانت تبتسم لى كثيراً ولكننى لم اطمئن لتلك الابتسامات : مالى أرى السكون يشمل البيت وأهله بعكس الليلة السالفة وإخوتى الذين كانوا يثيرونى بالأمس ما بالهم يرمقوننى بنظرات فيها الكثير من العطف والاشفاق. ثم أبى لماذا ارتدى ثيابه بسرعه وقبلنى وغادر البيت على غير موعده ؟ كل هذه الظواهر بعثت فى نفسى شعوراً من الخوف وصار قلبى يدق بعنف .

وسمعتهم يقولون جاء (المزين) . ودخل الرجل وفى يده حقيبة صغيرة من الجلد . هرعت إلى أمى فرأيتها تكفكف عبراتها فاختبأت فى أحضانها كأنى أتوقع شراً من ذلك الرجل . وجاء أخى الكبير وهو يتكلف الابتسام وأمسك بيدى وقال ان المزين يريد أن يصلح من شعرك فهززت رأسى وقلت لقد أصلحته بالأمس فقط ولا حاجة لى به الآن . فقال إذن يرجله لك . ثم حملنى وتمت (العملية) بين الصراخ والبكاء .

أدركت الآن وأنا فى سريرى المملوء بالأزهار مغزى إشارات الأطفال وقلت ليتني أدركتها من قبل فكنت فررت من البيت قبل أن يأتى المزين . وجاءني الكثيرون من أهلى وكلهم يضع فى يدى نقوداً فضية كثيرة فوددت لو

استطعت السير لأشترى بها ما أشتهى . وطال بقائى فى السرير ولم أك أغادره إلا للسير فى الغرف . وكان الجرح يؤلمني كثيراً فأقضى الليل فى البكاء والتوجع بجانب أمي العزيزة . وأصر أبى على أن يعودنى طبيب يخفف من آلامى فأن المزين كما يقول كان حماراً وإنه كان يجب أن أشفى فى أقل من أسبوع واحد .

ونزلت إلى اللعب فى الشارع بعد شهر طويل كله آلام ودموع فتلقتنى الاولاد بالفرح والتهليل .

وبلغت السابعة من عمرى .

فأدخلونى مدرسة ابتدائية قريبة من الحى الذى نسكنه . شعرت باننى أصبحت كبيراً وأنني أفضل الاولاد الذين ما يزالون فى الكتاتيب . وصار أبى يعنى بمراجعة دروسى ومراقبة ما أدونه فى دفاترى ولم يعد يقبلنى كما كان يفعل من قبل وإنما زاد من (مصروفى) وأصبحت أتناول نصف قرش فى كل يوم . وسرت فى دراستى بنجاح ونقلت إلى السنة الثانية الابتدائية فترفعت عن الكثير من الألعاب التى كنت أمارسها من قبل فلم أعد أحمل الأحجار ولا أضع فى فمى لجاماً وادع ولداً آخر يسوقنى بسوطه . وصارت ألعابنا هى قذف الكرة أو الاختفاء . أو القطة العمياء .

أصبحت أمى تراقبنى بشدة وتحاسبنى على الهفوات التى أرتكبها وتعنفنى إذا عدت إلى البيت بعد الغروب بل

أنها ضربتني لأنني امتنعت عن اطاعتها يوماً فى أمر كلفتنى بأدائه . وذكرت حالى السابقة منذ عامين وما كان يصيبنى من تدليل وإعزاز فرأيت البون شاسعاً . ويظهر أن لكل حال نهاية .

ومرض أبى فجأة ولزم البيت .

ومر أسبوع والبيت يسوده شيء كثير من السكون والحزن . ثم عوفى قليلا وأصر على الخروج لصلاة الجمعة ولكنه لم يكن قد استعاد قوته فانتكس وعاوده المرض بأشد مما كان . أخذ الأطباء ذوو القبعات يفدون على البيت بكثرة وكنت أراهم أحياناً وهم يخرجون من غرفته فيتبعهم أخى الكبير ليطمئن على حال المريض وكانت أمي تمسك بذراع الطبيب وهي باكية وتقول : " إن له أطفالا صغاراً يا دكتور فبربك انقذه " فيربت على يدها ويقول : إنه بخير .

زهدت اللعب أو كدت أهجره تماماً . كنت أحس بأن شيئاً كبيراً ينقصنى . لم يكدرنى فقط أننى لم أعد أشرب (الشربات) معه فى القهوة بل أحزننى كثيراً أننى لم أعد أرى وجهه الأبيض الضاحك معنا على مائدة الطعام . وأمس كان عشاؤنا من القرع المحشو بالأرز . كم هو يحبه ، فرغبت أن أذهب اليه بجزء منه فى سريره . ولكن أمى نظرت الىّ نظرة طويلة ساهمة وقالت وهى تتنهد ـ " انه لايتناول الا

اللبن كأمر الطبيب . "

ومضى اسبوع ثان . واختتم بليلة مانزال فى ذاكرتى كأنها بنت الأمس وهى قد مضى عليها اثنان وعشرون عاماً . ليلة سوداء مرعبة . ألم يذهب فيها ذلك الأب الرحيم ذهاباً لا رجعة له . أبى الذى لا أذكر أنه أساء الى بلفظ أو امتدت يده نحوى بأذى .

وكنت قد نمت كعادتى وتركتهم حوله . وأيقظتنى أمى فى منتصف الليل فوجدت غرفته غاصة بالأقارب وكلهم شارد الفكر حائر النظرات . اقتربت من سريره وأنا راجف الجسم خافق القلب فالفيته مسجى على الفراش وفى صدره حشرجة تكرب أنفاسه . نادته أمي وقالت ان الصغير بجانبك . فرفت أهدابه وامتدت يده الضعيفة وتحسست وجهى فارتعشت . وبعد دقائق كان الصراخ والعويل يملأ البيت .

لم أذهب الى المدرسة فى الصباح وظللت جالساً فى السرادق الذى أقيم أمام البيت وكان كالسرادق الذى نصب يوم الاحتفال بختانى الا أنه كان مجرداً عن الأعلام والرايات الحمراء . منعونى مراراً عن الصعود الى البيت وخيراً فعلوا فلم أك أحب ان أراهن يبكين ويلطمن خدودهن . وأعطانى أخى نقوداً كثيرة لأبتاع ما أشتهي من طعام أو غيره ولكنها ظلت فى جيبى طوال اليوم لأني لم أشعر بالحاجة الى الأكل . وبعد صلاة العصر كثر المجتمعون ورأيت جنوداً وفرساناً يقفون

بقرب السرادق ثم اشتدت أصوات النساء وظهر النعش فبكيت كثيراً . وسار يحرسه فارسان من رجال البوليس وأمامه الجنود فى صفين . ركبت مع أمى وشقيقاتي مركبة ذهبت بنا مسرعة الى مكان مقبض لم أره من قبل وقالوا هنا المقبرة . وكن لا يمسكن عن البكاء طول الوقت الذى مكثناه هنالك . وظهر النعش بعد حين وسط القوم وبينهم اخوتى فهرعت اليهم ورآني قريب لنا فقال " ياعالم . ألا تخشون الله . كيف تأتون بهذا الصبي الى هنا ؟ " . فأجاب آخر : " ان روح الميت يرفرف فوق النعش ويسره ان يرى صغاره يمشون خلفه " . وأودعوه التراب . . . .

كل شيء أسود حالك . ثيابنا . أغطية الفراش . والأثاثات . حتى الأبسطة قد قلبت على ظهورها . ظللن يبكين ثلاثة أيام متتالية حتى تلفت عيونهن وبحت أصواتهن وصرن يتفاهمن بالاشارة . وكنا نأكل غراراً فقد أشربت النفوس بالحزن ولم تعد تطلب غيره غذاءً لها .

وجاء أحد (المواسم) بعد شهر . والموسم له طعام كثير وفطائر وحلوى . ورأيت الباعة يقيمون المدرجات الخشبية ويضعون عليها العرائس والحلاوة الحمصية . والأطفال تحمل الطيور لتذبحها لدى القصاب فقلت لأمي هلا نذبح الأوزة التى على السطوح ؟ فحملقت فى وقالت : ألا تعلم بأننا فى أحزان ومن العار أن نطهي شيئاً فى هذا اليوم ؟ فسكت .

واقترب العيد . وانتظرت أن يأتوا لى بالبذلة الجديدة والحذاء الجديد والطربوش الجديد أيضا كما كان يفعل أبى . ولكن هانحن فى يوم الوقفة والمدافع تقصف بعد العصر وليس فى البيت الا بكاء ونحيب . اذن فلن ألبس غداً شيئاً جديداً ولن العب مع أطفال الحارة الذين سيرتدون ثياب العيد . لماذا مات أبى قبل الموسم وقبل العيد ؟ . أدركت حينذاك أننى لم أفقده هو فقط بل خسرت بموته أشياء كثيرة . .

وطرق أذنى صوت يقول ـ "هل اقرأ على روح المرحوم ؟"

فانتبهت من غفوتى فزعا وتلفت حولى فاذا الظلام ينشر ذيوله على المكان . فسحبت نفسى فى عناء وألم وأنا أعجب لذلك الوقت الطويل الذى قضيته بالمدفن . ووضعت فى يد الرجل نقوداً وقلت له :

— " اقرأ سورة يس بجانب هذا القبر " وخرجت .

٢٧ فبراير سنة ١٩٣٢

قلب أنه في سعير

وعاد « شفيق » يتلو خطابها للمرة الثانية :

ـ " لست أدرى لم تتحكم الأقدار فى مصائر الناس ؟ لقد أحسست لأول مرة رأيتك فيها انه يجب أن تكون لى وأن أكون لك، ولكن ستعلم لمن أنا الآن . لغيرك بلا شك . فليتك لم تقع لى فى طريق فلست أرى لآمالنا من بشائر . . .

كانت صبيحة يوم الخميس الماضى حينما لمحتك فى غرفتك، وكنت اذ ذاك ترجل شعرك أمام المرآة وترتدى ثياب الخروج والمسافة بين نافذتينا قصيرة فأمكننى أن أتبين وجهك، وان أراه جذاباً ، وان أشعر بأن لك روحاً قوياً يملأ فراغ غرفتك سرى الكثير منه الى نفسى . وقفت خلف الستار برغمى لا أنفك عن مراقبتك وأنت تغدو وتروح بقامتك الطويلة ثم تأتى بالطربوش وتنظفه فى تؤدة وتضعه فوق شعرك المرجل . وقبل أن تغادر الغرفة وقفت برهة فى النافذة المفتوحة ، وأظنك كنت تحصى نقوداً فى يديك . لم يخطر لك ببال ان عينين ترقبانك من ثقوب الستار وان قلبا كان يخفق لأول مرة من أجلك . ظللت فى مكانى بعد انصرافك

حتى أيقظنى صوت الخادم فخرجت الى الردهـــة وكان زوجي على وشك الخروج مثلك فقبلنى وغادر البيت . جـــريت نحو الشرفـــة لأشيعه ولأراك . خرجتَ بعده بدقائق فمكثت فى الشرفة حتى جاء الترام وركبته . لم يكن من حظي أن تكون غرفتك مما يقـــل جلوسك فيها فلم تظهر أمامي سحابة يومك ولم أستطع رؤيتك الا فى صبيحة اليوم التالى .

ومرت أيام ثلاثة ورقابتى لك لا تنقطع وتفكيرى فيك دائم . كنت أحـــدث نفسي وأسائلهـا ما هذا الهوس وأنعى عليها هذا التفكير الآثم فهناك رجـــل واحد لايجب أن يشغلنى عنه شاغل هذا الرجل هو زوجى . وأخـــيراً وطدت العزم على أن أهجر تلك الغرفـة اللعينة التى تشرف عليك — ولـكن هل تحسبنى فعلت ما اعتزمته ؟ لقد دخلتها . ودخلتها فى الآونة التي أثق من وجودك على مقربة منى . ما هذا الشعور الطـــاغى الذى يجـــرفني ويسلبنى كل ارادة ؟ أزحت الستار بكرهي وبدوت أمام نافـــذتك كأنى لا أدرى ان فيهـا من يجب أن أستتر منه . ورأيتني وكـدت تنحرف عن النـافذة كما يفعل الجار الذى يحرص على أن لايخدش حياء جارته . ولـكننى أفسدت عقيدتك فى كل الجـــارات وابتسمت لك وأومأت برأسى فى تحية وأنت فى عجب ودهشة من أمرى . اكتفيت من يومى بهذا القدر وانصرفت وقد وثقت من أنك ستعنى بشأنى ، وقـــد كان . وبعد الظهر رأيتك رابضاً بذراعيك على حافة

النافذة فابتسمت فى نفسى وقلت ما أغـــرب الرجال . تبادلنـا
التحية من جـــديد وانصرفت بعد ان شورت بأصبعى فوق
شفتي ورسمت لك شارباً لأخـــبرك أن رجلا بالمنزل . . . .
لست أدرى لم دونت لك هذا كله ولدى مايفوقه أهمية واعتباراً
الا أن أكون راغبة فى أن أسجل كل ماخالجنى من شعور
مذ رأيتك تمر فى حياتى .

تحادثنـا كثيراً بعـــد ذلك تارة بالكلام الخافت ، وتارة
بالاشارة ، وتفاهمنـا واخبرتنى بأنك قد أحببتنى ، وانك راغب
فى لقـائى فى الخارج فى ميعاد أحـــدده لك فوعدتك برسالة
أبعث بهـا اليك مع ذلك الغـــلام (صبى المكوجى) الذى
يغشي بيتنا وبيتك .

هذه الرسالة التى بين يديك هى أول خرق فى سياج التقاليد
بل هى أول ثغرة فى صرح الزوجية . وكلانا الآن خاطىء
فى رأى الناس آثم . أنت ، لأنك تتصل بمن لا تحلها لك الشرائع
وأنا ، لأنى أتحبب لغير من يتملكنى ويمسك بزمامى . نعم هو
زوجى أمام الله ولكن ما كان ذلك بارادتى بل بارادة من
تعرفهم من أهل كل فتـاة وذوى شأنها . والرجل طيب مسكين
لا أحمل له الا كل احترام ، وتقدير ولشد ماهو جاد فى كسب
رضاى وحبى ولكن ما أحسبه موفقاً وقد مضت على قراننا ستة
شهور لم يتغـــير فيها شعورى نحوه وها أنت تظهر فى النهاية .
كنت أروض نفسي على الرضا به ومبادلته ميلا بميل وأخاطبها

بقولى ماذا تبتغين أكثر من رجل ييسر لك العيش ويغدق عليك عطفه ولا يبخل عليك بما تشتهيه؟ انك حقاً لجاحدة كافرة بالنعمة. يستهوينى هذا المنطق ويؤثر فى نفسى فاعتزم ان أحبه وانتظره وقلبى فى يدى نابض خفاق. ولكن لا تكاد تجمعنا الجلسة حتى أشعر بأن روحى غريب عنه وان قلبى يضطرب فى يدى طالباً العودة الى مكانه فأضعه بين جنبى وأنا حزينة أسيفة.

كثير على النفوس أن تجمع على غير وفاق وحب. واذا جمعت على ذلك فلها العذر اذا أفسدها الكذب والرياء. كم يحزننى أن لا تستجيب عواطفى لعواطف ذلك الزوج ذى الآمال والمشاعر الفياضة، وكم يحز فى نفسى أن أكون بين ذراعيه بجسمى وأفكارى تسبح حول غيره. كلانا زوجى وأنا ضحية. بل أنا التى أقاسى الآلام بأشد منه وأحمل العذاب ألواناً وهو لا يدرى. لقد تزوج منى وأنا لست من أهل بلدته فهو سكندرى وأنا قاهرية. وبرغم أنه لم ير لى وجهاً قبل الزواج فهو يقول أننى أرضيه من كل النواحى، وان قلبه كان متأهبا لأن يحب زوجه المقبلة كيفما تكون. هو معذور فهكذا تحكمنا العادات وتجعل من الزواج صفقات كصفقات (اليانصيب). فلا الزوج بالذى يدرى من ستلقيها الأقدار بين يديه ولا الزوجة بأوفر منه حظاً فى الاختيار. هو قانع بى الآن لأن مظهرى غير قبيح بل فيه الجمال الكافى لارضاء كل رجل. ولكنه يحس بفتور عاطفتى وتكلفى التودد اليه فيألم. أما

أنا فقد نالنى من تلك الصفقة كل خسران. فلست أرى فى جثمانه مايثير اعجاب المرأة برجلها ولا فى روحه من القوة ماتجـــذب القلب وتستهويه. ولولا طيبة فى خلقه وطهارة فى قلبه لفررت منه مذ يومى الأول معه.

لمست فيك شغفاً بى وتلهفاً علىّ ولم أذكـــر فى حديثنـا أننى زوجة فحسبتنى عذراء غير ذات بعل فتكلمت عن الزواج. وجمت حينذاك ولم أقو على مصارحتك بالحقيقة حتى لا تنفر منى بل أحببت ان أستمتع بصلتك ولو الى حـــين. ولـكننى لا أملك كتمان أمرى عنك الآن. فما أنت فاعل بعد ذلك؟ أمحقرى أنت ومزدر لسلوكى لأننى زوجة ويستكثر من مثلى هذا العبث؟ أم مغض عن هــــذا الاعتبار ومرحب بحبى وفاتح قلبك لى ؟؟.. وحقك أن تفعـــل هذا أو ذاك فقد انتهى الأمر من جانبى وأعلنت الثورة على المجتمع ونظامه وعقـــدت النية على أن أراك..

... ان الحياة هى المرحلة القصيرة التى نقطعها على ظهر الأرض قبل أن يطوينا العـــدم، وهى الفترة التى يجب ان نلتمس فيها السعادة وننعم فيهـا بالحب قبل ان تغشانا ظلمة الأبدية. أندع تلك الأيام بل الساعات من العمر تروح بلا جدوى لأن آمالنا لاترضى عقائد الناس ولا تهضمها عقولهم؟؟

هذه الزهرات التى أمامي فى باقة صغيرة لمَ أراهـا جميلة؟ وقد أمسك باحداها فلا ألمس فيها ذلك الحسن الذى ينسكب عليها

وهى مجتمعـــة ، ذلك لأن جامعها أفلح فى تنسيقها و تأليفها فلا تحس فيها تنــافراً أو شذوذاً . ونحن فى حياتنا نعشق التناسق ، ويستهوينا تآلف الالوان وتقـــارب الميول ، ونمقت الفوضى ونزدرى الخلط الذى تقتحمه العين . ولـكننا نغتفر ان لا يكون بين الرجل وزوجه تآلف أو تقارب فى الميول ونـكره كلا منهما على ان يرضى برفيقه كيفما كان هذا الرفيق لأن الزواج فى رأينا ان نصل بين فتى وفتــاة بعقد شرعى وكفى . ومتى اتصلا فعليهما الرضا وعليهما الرضوخ . ولـكن لم نصبر على هذا التعسف ولم ندع حظوظنا وقلوبنــا فى أيدى أهلينا ؟ أنت وأنا وغيرنا لا يرضيه ان يتحكم صاحب له فى اختيار ثوبه بل حذائه . لأننــا ندرى ان لـكل منا نظرة وتقديراً يختلف عن تقدير صاحبه . أما اذا جاء الزواج . . . هيه فأنت تعلم بلا شك كيف نساق وكيف ينتقل الخيار لغيرنا وما الأمر بمعنيه .

مالى أثقل رأسك بهذا كله ولى كلمة واحدة هى أن أراك ، وأتحدث اليك فى مكان قصى هادىء وما أحسبك غاضباً لهذا الطلب . أجبنى اليه ولو على الرغم منك ، فأنا أعلم الصراع الذى سيقوم فى نفسك وقـــد أدركت حقيقة أمرى . أجبنى لمطلبى واسلك معى بعد ذلك ما تشاء . فليس أضيع لنفسى من أن يخيب أملى حتى فى رؤيتك . . . لست عليمة بهذه المدينة ولا بمسالـكها فسأنتظرك غداً فى الساعة الرابعة على مقربة من محطة الترام والى اللقاء . . .

كوكب

* * *

رفع شفيق بصره عن الرسالة يبطء ثم دفن وجهه بين راحتيه وهو يتنهد . تقول انها زوجة فيالضيعة الأمل . ماهذا الحب الذى نما وغمر قلبه فى أيام قصيرة ثم يأتى القدر الساخر فيلقى عليه ظلا من اليأس والخيبة؟ كان حدثاً جديداً فى حياته ان يحب . وان يجد من تبادله تلك العاطفة . لقد سلخ الثلاثين من عمره وقلبه يرفرف بين ضلوعه ينشد أليفاً يسكن اليه . سنوات من شبابه ولت وروحه فى جفاف ويبس، وسنوات انقضت وهو يغشي مجتمعاً قفراً من المرأة تسوده الحسية وتتحكم فيه الغرائز الطاغية. حتى كان الاسبوع الماضى فاذا تلك النفس الجافة العود تدب فيها الحياة وتورق وتزدهر . رآها فى نافذتها فى الصباح فأذهله ذلك الحسن المتدفق من كيانها فتوارى وقد خشى أن يجرحها ظهوره ولكنها ظلت فى النافذة باسمة فحسب أنه حالم . وبعد الظهر انتعشت آماله اذ ظهرت له ولم تنفر من تحيته . ومضت أيام حلوة وليال عذبة الأحلام فقد نال القلب بغيته وعثرت النفس بأليفها . غدت غرفته محراباً لا يبرحه كلما دخل البيت يبعث اليها بنجواه على نسمات الهواء ويقذف اليها بالورد فتقذف اليه بالتفاح والبرتقال وكان الطابق الذى يسكنه كل منهما فى أعلى البناء فأمنا عيون الناس . لم يشأ أن يعلم من هى ومن أبوها ومن أهلها ، فهم آخر من يفكر فيهم مادامت هى بذاتها تبادله المودة والحب ولا يحسبها ترفض طلبه الزواج

منها . وبدت له هذا الصباح وعلى وجهها أثر من الاعياء والتفكير وقالت ستأتيك رسالة عن يد (صبي الكواء) فانتظرها . وعاد من عمله وقلبه يخفق انتظاراً لتلك الرسالة . وهاهى أمامه فما أضيع الآمال . .

لقد نفذ الحب الى قلبه وتغلغل فى الشغاف، ولكنه حب نما فى غير موضعه فلا هو بالذى عاد يؤمل فيه ولا بالذى يرجو من ورائه ثمرة . ما أشقاه وما أبأسها . ليته ظل شاغر القلب هائم الروح ولم يعثر بها لتنتهى بهما الحال الى هذه الخاتمة . ماهذا اللقاء الذى تلتمسه وما هذا الالحاف فيه ؟

ان عبارتها : « أجبنى لمطلبي واسلك معى بعد ذلك ماتشاء فليس أضيع لنفسى من أن يخيب أملي حتى فى رؤيتك » لتسحق قلبه سحقاً . يالمسكينة. أتقول ذلك ولا يلبى نداءها. ولكن أيجدى ذلك اللقاء ؟ ان الهوة لعميقة بينهما وكل خطوة منهما تدنيهما من السقوط . ليس أحب اليه من أن يلقاها ولكن . . ولكن شرفها وشرف ذلك الزوج يهيبان به ويستصرخانه .

هذا القلب الذى يضطرم الآن فى صدره يجب ان يعصر ، وأن يسحق ان دعت الحال . فلا خير فى حب يتلوث منه العرض وتخدش من جرائه السمعة . هى تنعى على التقاليد وتشكو جبروتها الذى دفع بها الى من ليست تهواه. وهى تستمع لعاطفتها وتطأ كل عائق يحول دون اتصالها به . ولكن هناك حال مشروعة قائمة ، من النذالة أن يغفل شأنها وأن لاتجد

لها من النفوس حامياً أو نصيراً . تلك هي رابطة الزوجية .

يجب أن ينسيها هذا الحب ، وأن لا يشجعها على الاسترسال فيه وان كان في ذلك موات لنفسها ولنفسه . سيختفي عن بصرها ، بل ويترك هذا البيت بعد أن يدفن فيه حبه الخائب . وللزمن قوة على تفتيت الذكريات ومسحها من الأذهان . وهي زوجة وستألف يوما ذلك الزوج وترضاه وتمضي حياتها كما تقول على غير تناسق ولكنها خير من أن تنحدر إلى شقاء لا قرار له . أما هو فسيظل مغمورا بذكراها يداوي صدع ذلك القلب ونفسه تستروح كلما ذكر أنه لم يثقلها بوزر ...

أضناه ذلك التفكير وتأزم له صدره ولكنه أصر على أن ينتهي إلى حل لقضيته الآن . أيبعث إليها بخطاب يكشف فيه عن خطورة الموقف ويستحلفها بحبها الا تريثت في قرارها وقدرت مغبة هذه الصلة التي قد تعصف بسمعتها وسمعة زوجها . ولكن ألا يؤلمها هذا ويصدم شعورها وهي القائلة : « إن حقرتني لسلوكي أو رحبت بلقائي وحقك أن تفعل هذا أو ذاك فقد انتهى الأمر من جانبي وعقدت النية على أن أراك . »

إذن فلا مندوحة عن مقابلتها وان كان أشد ما يخشاه أن يخونه جلده ويقضي وجودها بجانبه على ما في نفسه من مقاومة .

* * *

ورآها مقبلة من بعيد وهي ترفل في ثياب فاخرة ووجهها

تعلوه غلالة رقيقة . وكانت عيـــون الناس تكاد تلتهمها وهى تقترب منه . احس بارتبـاك شديد لرقابة أهل الحى وفضولهم وود لو اختفي عن أبصارهم ولـكنهـا رأته ولا سبيل الى أن يتزحزح عن موقفه. فان كانت وهى سيـــدة قد خاطرت بكل شيء فى سبيل لقائه فلا يجمل به أن يـكون أقل منها شجاعة .

وسارا جنبا الى جنب مسافة قصيرة حتي انقذتهما سيـارة احتوتهما . وما كاد يستقر فيها حتى تنفس الصعـــداء وأخذ يجفف عرقه . وتنبـــه لصوتها وهى تقول فى لهجة مؤثرة ـ

ـ « لقد أحرجتك فعفواً »

هز رأسه فى انـكار قائلا ـ « أبداً . إنمـا خشيت أن تعرف الناس من أنت فأهل حينا من الدهاة المحافظـــين . »

وانتهت بهما السيارة إلى حديقة النزهة وجلسـا تحت خميلة فى مقصف هادىء وأمامهما أكواب الشاى وأطباق الحلوى .

ذهب ما بهما من انزعاج وقد أمنا العيـــون فى ذلك المكان القصي الساحر . وتطلع (شفيق) إلى رفيقته وقد كشفت عن وجههـا الجميل فشعر بالحسرة تهبط بقلبـــه فأغضى من بصره وأخذ يتشاغل بأعداد الشاى .

وقطعت حبل السكوت وهى تدير ملعقتها الصغـــيرة فى كوب الشاى قائلة :

« وصلتك رسالتى طبعاً »

فصمت قليلا وقال باسماً ـ " بل تعاليمك ومبادئك "

فضحكت ضحكة قصيرة ثم قالت : " خطـــيرة . أليست كـذلك ؟ "

فزفر الشاب وقال ـ " خطيرة لأننا منها كما نحن الآن . أحدنا زوج لرجل والآخـــر لا أدرى ماذا أسميه . فليـكن صديقاً والناس لا ترضى عن ذلك . "

فقالت فى سرعة ـ "وما شأن الناس بالناس ؟ "

فأجاب وهو يرى العاصفة على وشك الهبوب ـ

ـ "أتريدين أن نسقطهم من اعتبارنا ؟ فليـكن ما تقولين ولـكن هل نسيت ما لضمائرنا من حساب ؟ "

تجهم وجه الفتاة ونفذت عبارته الى قلبهـــا كالسهم وآلمها هذا التحفظ منه وعدم الاحتفال بعواطفها .

وأدرك هو قسوة الرد ومقدار ما أثر فيها فقـــال متلطفاً وهو لا يقل عنها تألمـاً وعذابا .

ـ « لقد أعجبت بهذه الرسـالة لصراحتك فى الـكشف عن نفسيتك واخلاصك فى التعبير عن مشاعرك »

عادت الحمرة الى خديها وقالت وقد لمعت عيناها ـ

« أو تـكره الحقيقة أيضاً ؟ »

ـ « أوه أبداً . الحقيقـــة هى كل ما أحب . ولـكنـــك لا تعثرين بها إلا قليلا . »

فقالت وقد سرها أن تـكشف طريقاً لاستدراجه ـ

ـ « ما موقفك إذن من أمرنا اليوم ؟ »

أخـــذ يعبث بمنـــديل من الورق كان فوق مائدة الشاى ويطويه بأصابعه المرتعشة ثم رفع عينيه فى بطء وقال ـ

ـ « ألم تدركيه بعد ؟ ـ »

فأجابت فى مرارة ويأس ـ « إذا لم أك مخطئـــة فانك كاره هذا اللقـاء . »

تصنع العجب وهو ينحي على نفسه باللوم لهذا المظهر القاسى الذى يبدو به أمامها فى الساعة الأولى . وكان يجدر به أن يترفق بهـا ويكبر من شعورها الذى دفعها إلى المخـــاطرة فى سبيل لقـــائه ثم قال ـ

ـ « ما أحسبك صادقة فى قراءة الوجوه . انى جـــد مغتبط بهذا اللقاء »

هزت رأسها ثم أدارت وجههـا لتخفى الدموع التى جالت فى عينيها وقالت فى صوت خافت :-

« كان يجب أن أدرك ذلك من قبل . فما أحمقنى . »

لم تبـق ذرة فى جسمه لم تختلج وأحس بقلبه ينفطر حزناً وأسى عليها . لقد أتى معتزماً بتر هذه الصلة ووأد ذلك الحب ولكن هاهي قواه تفتر ومقـاومته تذوب أمام هذه العواطف الطاغية . أنى له الشجاعة التى تحمله على الجـــلد وتمده بالقوة على صد ذلك التيار الذى يكتسحه ؟ فتـــاة تهواه ويعبدها تكرهه الحوادث على أن يقصيها عنه ويبـــدو ازاءها قاسياً لا قلب له ، فهل من موقف أشد من هـــذا على النفوس هولا ؟

أمسك يدها وهى تجفف مآقيها من الدمع وقال وهو يحدق فيها بعينين فيهما اليأس وملؤهما الحنان -

- « أتبكين يافتاتى : وهل كانت الحياة لمن يفهمها الا فواجع ومآسى ؟ يكفى كلانا مايضطرم به القلب وتستعر به النفس وكفكفى هاته الدموع التى تذهب بلبى وجنانى . أتحسبيننى دونك ألماً . أهو هين على أن أراك مني على هذا القرب ولست بالذى يملكك أو يحق له النظر اليك ؟ كلانا مشدود الى قوتين متضادتين؛ عواطف قاهرة تجذبه وتقاليد تنتزعه الى ناحيتها . فان لم نمل مع احدى القوتين تمزقنا بينهما ورحنا اشلاء . لنطع ميولنا ونلبى نداءها فماذا نصبح ؟ نصبح فى جانب من الحياة والناس كلهم فى جانب واحد ، تقتحمنا نظراتهم ويقتلنا ازدراؤهم لنا . ولنا نفوس لاتحمل هذا الهوان وضمائر تقرع آذاننا فى كل حين . . . اذن فهو العذاب الذى فى انتظارنا وليست السعادة كما تحلمين . لى روح ظل أعواماً جافا مجدبا فليس يضيرنى أن يعود اليه الموات . أما أنت فلست أبغى لك هذا الشقاء . ما أيسر أن تتناسينى . . .

وهنا شهقت وقد أمضها الحزن ورفعت يدها كأنها لاتود منه أن يسترسل فى حديثه . إلا أنه استطرد وقلبه تنزف جراحه - « جربى يافتاتى وسيكون لك من الزمان عون على محو كل ذكرى . فما أقواه على دفن الماضى وكم أعان اناساً على السلوى وبدل أحزانهم أفراحاً . ستألفين بيتك وتحبين زوجك

مادام حادباً عليك باراً بك . لاتحسبين هـــذا هراءاً منى بل ستحمدين لنفسينا هذا الحل الذى تسفهينه الآن وتقولين ما أحمقنا لو أطعنا اهواءنا وجرينا وراء عواطفنا الهوجاء . نحن أمام عاصفة طارئة وليس الا أن نطأطىء رأسينا فتمر بسلام »

أضناه هذا الجهد الذى يبـــذله فى قهر شعوره وظهوره بمظهر الهادىء المطمئن فسكت . ولـكنه أراد أن يوقف تفكيرها فجأة ويحوله عن طريقه فمد يده المرتعشة ورفع ابريق الشاى وقال وهـــو يعانى ابتسامة يرسمها على شفتيه الباهتتين ـ « أننا لم نشرب شيئاً . خذى هذا الفنجان معى فهو يريح أعصابنا »

كانت فى غمرة من الشجن تصغى الى حـــديثه كالمشدوهة الحالمة فأدهشتها تلك النتيجـــة التى انتهى اليها بهذه السرعة . ماهذا النسيان الذى يدعو اليه ؟ وماهـــذا الهدوء الذى يتكلفه وعباراته المرتجفـــة تهتكه وتفضحه ؟ أجاد هو فى عزمه ولا مناص الآن من قطع تلك الصلة وقتل ذلك الحب ؟ هالها الأمر فصاحت وعيناها تسبحان فى دمع فائض ـ « هـــذا كثير ، كثير لا أحتمله . هذا هو العـــذاب بعينه . أتحسبنى لم أفكر فى ذلك النسيان الذى تدعو اليه ؟ لقد فكرت فيه وكان مجرد التفكير اذكاءاً لآلامى واشعالا لقلبى . ماهذه الأحكام الصارمة التى نقضى بها على أنفسنا . ألا ترفقت بى وبنفسك ؟ . »

شعر بأنه سيفقد زمام نفسه ولـكن خطوة منه الى الوراء ستزيد الأمر خطراً وسوءاً ، فيجب أن يصمد الى النهـــاية

ويجب أن يستحيل قلبه جلمدا أصم فقال متنهداً :
« لا أكذبك القول . سنألم ولكننا سننسى بعد قليل . وهكذا الحال فى كل خطب يقع لنا ، نستعظمه وتنهلع له أفئدتنا ويملك علينا اليأس كل المسالك ، ولكن الايام تعمل عمل البلسم فى الجراح فتشفى نفوسنا المكلومة وتشغلنا الدنيا بعرضها ويصبح ذلك الخطب الكبير أمراً منسياً . لا أريد أن نأخذ نفسينا بالجهد والعنت فلنمتحن قدرتنا على الصبر اسبوعاً . اسبوعاً واحداً فقط . ولكن على أن لا يظهر أحدنا للآخر فى طريق وأنا الكفيل بأن شيئاً جديداً سيحدث . سنكون أكثر تقديراً للموقف وقبولا لحكم العقل » .

وقعت كلماته رهيبة فى أذنيها كأنها تسمع فيها حكم القضاء الذى لارجعة فيه . أحست بالدنيا تدور أمامها والأرض تميد تحت قدميها فأغمضت عينيها فى يأس وخذلان .

واستنفد ذلك الجهد كل ذرة من قوي الشاب فتراخى فى مقعده وأنفاسه تتردد فى عناء ونفسه يمازجها شعور من الطمأنينة لفلاحه فى عبور تلك المحنة . وجاء الساقى وحمل الأوانى والأكواب ورأى شفيق أن النهار قد ولى أو كاد فقام واتجه نحو الفتاة وأمسك بذراعها ليساعدها على النهوض . قامت وهى تتحامل على المائدة وأسدلت قناعها ؛ ثم سارت بجانبه صامتة .

اندفعت بهما السيارة فى طريق ترعة المحمودية وأخذ

نسيم المساء يرفه عن صدرها الجائش المتأزم . وكان يلمحها بطرف عينه فيلقاها تحدق أمامها بنظرات ثابتة غامضة . ورأى بجانبه (محفظتها) الصغيرة فتناولها يقلبها بين يديه . رأى فى أحد أركانها حرفين من ذهب منقوش ؛ والفاها فرصة ينشيء من ورائها حديثاً يقطع ذلك الصمت ويصرفها عن التفكير فقال :ـ « ان هذا النقش بديع حقاً . أما الحرف الأول فهو لاسمك بلا شك . أما الثانى . . . »

فقاطعته فى صوت خافت قائله :ـ « هو لأسمه . »

وكأنه أراد أن يعبث ويتسلى بحل ذلك الرمز فقال : « فهمى أو فهيم أو . . . »

ـ « هو الأول فهمى راغب »

انتفض الشاب والتفت اليها قائلا فى صوت متقطع ـ « أتقولين فهمي . راغب ؟ »

ـ « أجل وهو موظف فى مصلحة . . . »

ياللكارثة ! ! زوجة لصديقه أيضاً . . ماأسوأ الحال ! مسكين فهمي ماذا يصيبه لو درى شيئاً عن هذه العلاقة . انه شاب رقيق الاحساس رضى الخلق ، بكر فى الزواج لأنه لا يطمئن لمرح العزوبة ولا لعبث الشباب فهل يجزى بتلك النهاية التي يطير لها اللب ؟ مسكين انه لا يستحق هذا كله . ما أجدره بزوجة ترعاه وتحبه . وهو لو درى أنه زوج لتلك الفتاة ما أقدم على لقائها . أيخون صديقه فى زوجته انها

السفالة بعينها . ولكنه بحمد الله على أن الأمر لم يتعد الحديث البرىء وقد وقف من الفتاة موقف الرجل الذى يحرص على عرض الأزواج ولا يرضى الخداع والتغرير بالقلوب . لقد انتوى نسيانها وما كان ذلك الأسبوع الذى جدده لها للتفكير إلا تخفيفاً من وقع الأمر فى نفسها ؛ فهو لم يستسغ رابطة تقوم بين فتى وزوجة . والآن وقد انكشفت الحال عن هذا السر الرهيب فهو أكثر اغتباطاً لتلك القطيعة التي انتواها من قبل . سيكون هذا اليوم آخر عهده بها وهو يشكر الله على أن ذلك السر سوف يعجل بمحو حبها من فؤاده . ولكن أيصارحها بالحقيقة أم يدعها جاهلة لها . ان علمها بهذه الصلة التى تربطه بزوجها سيضاعف من آلامها بلا شك . فليتركها الآن وكفاها ما عانته فى يومها .

لاحظت الفتاة ما أصاب الشاب من ذهول وما بدا عليه من اضطراب ظاهر لدى سماعه اسم زوجها ، ورأته يتحول عنها إلى النافذة ويطول به الصمت فأوجست خيفة وقالت ـ « ماذا أصابك ؟ »

تصنع الثبات والهدوء وأجاب ـ « لا شىء . فقد أشكل على هذا الاسم وحسبت أننى أعرف صاحبه »

ووصلت السيارة إلى مقربة من الحى . فأخذت الفتاة تصلح وضع القناع على وجهها والتفت إليها الشاب قائلا : — « يحسن بنا أن نقف هنا وأن تسيرى بمفردك » . فهزت

رأسها بالايجاب . ونادى السائق آمراً إياه بالوقوف وفتح باب السيارة ليمهد لها النزول . ولكنها انتظرت هنيهة تحدق فيه وفى عينيها سؤال تتردد فى القائه . أدرك ما تبتغيه فابتسم قائلا « سأتصل بك إذا ما انقضى ذلك الأسبوع لأقف على رأيك . » ثم نزلت واتجهت صوب البيت .

* * *

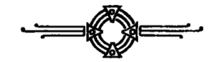
ومضى الاسبوع . ولم يكن شفيق فى حاجة إلى خطة جديدة أو تفكير جديد فهو قد انتهى إلى القطيعة والتناسى ولم ير لفتاته وجهاً أو لم يعن بمراقبتها . ورأى صديقه (فهمى) منذ يومين وهو يتأهب لركوب الترام معه فشعر برجفة تهز جسمه وهو يصافحه . كان مشفقاً عليه كل الاشفاق ، وكان يؤمل من صميم قلبه أن توفق (كوكب) إلى حب ذلك الزوج الطيب وتعمل على اسعاده . ولمحتهما (كوكب) من النافذة وهما يتصافحان ويتحدثان . فهبط قلبها وعلا وجهها اصفرار شديد . إذن فهما متعارفان . وذكرت ما اعترى الشاب من اضطراب حين سمع اسم زوجها وهما فى السيارة فأيقنت أن الشاب كان يجهل أنها زوجة لصديقه ولم يدرك ذلك إلا منها . إذن لا بصيص من أمل ولا ومضة من رجاء ترجوها بعد الآن . ها قد انتهى الاسبوع دون أن يتصل بها ولم تره إلا اليوم مع زوجها . كانت تفكر فيما حدثها به وما يراه من شذوذ فى علاقة تقوم بينهما ، وقد أكبرت فيه حرصه على سمعتها وشرف زوجها وهو لا يعلم

فى ذلك الحين انه صـــديق له فكيف بحاله الآن ؟ ان المروءة والوفاء يدعوانه إلى الاخلاص لصاحبه والحرص على عرضه . ولكن أليست هى الأخـــرى أجدر بأن تكون أكثر وفاء لمن اختارها لنفسه زوجة ومنحهـــا اسمه وأولاها ثقته ؟
ارتدت عن النافذة وقد أحست بقلبها يطعن وتتفجر دماؤه .

على كاهلها واجب عظيم الخطورة . هو واجب الاخلاص لذلك الزوج . لقـــد ارتبطت به راضيـــة هى أم كارهة . وأصبحت لا تملك التصرف فى قلبهـا فأما ان تمنحه إياه واما أن تسحقه وتعيش بدونه . هكذا نصيبها ونصيب الكثيرات من بنات جنسها ، فما كان الحب فى شريعتنا بالذى يعبـــأ به أو يعني بالتمهيد له بين الفتيان والفتيات . إذن فلتعش كما تعيش مثيلاتها ، ولتنفض يديها من ذلك الشاب الذى يحق لهـــا أن تشكره وتمتدح خطته معهـــا . لقد كان عظيما فى قهر عاطفته ، نبيلا فى صونها عن السقوط فى رأى الناس ، ولم يبق إلا أن تنشد السلوى وتأخذ فى العناية بذلك الزوج . لقـــد اصطحبها بالأمس إلى إحـــدى دور السينما ليرفه عنهـــا وبدا أمامها مشهد لشخصين متحـابين فاختجلت وشعرت بيده ترتفع إلى كتفها وصوته يهمس فى أذنهـــا قائلا « ما أحلى أن يكون بين الرجل والمرأة حب متبادل . » ارتعشت لصوته المتهدج وأدركت عمق عاطفته ومقـــدار ما يطمع فيه قلبه من حب وسعـــادة فكادت تبكى . تبكى ألمـا لنفسهـا وشفقة عليه .

وفى تلك الليلة بدا أكثر اهتماما بها وتحببا إليهـــا . ما الذى يمنع من أن يكونا هذين الشخصين اللذين ظهرا أمامهما على ستار السينما . لا شىء إلا خطـــوة واحدة من جانبها . فهو قد أحبها من قبل ولم يبق إلا أن تستجيب لعواطفه .

وشعرت بالدموع تفيض على وجنتيها وقلبهـا يكاد يقفز إلى حلقها فهوت على مقعدها خائرة وهى تردد فى صوت مختنق ـ « سأحبه . نعم سأحبه ... »



سيد القرية

نزل من القطار وسار على أفريز المحطة بخطوات فيها الكثير من التؤدة والزهو . وكان شيخاً فى الأربعين من عمره فارع القامة ، ظاهر البدونة ، أسمر الوجه قاسى الملامح ، فى جلباب من (السكروتة) تعلوه جبة سوداء فاحمة . وكانت عمامته الصغيرة تستقر على رأسه فى انحراف الى اليمين وقد عني بجدل أطراف (شالها) الأبيض فبدت فى ذوائب دقيقة مفتولة تحيط بطربوش العمامة الأحمر . وكانت ساحة المحطة خالية إلا من بضع قرويات افترشن الأرض وهن فى ثيابهن السوداء المغبرة وبجانبهن القفف الكبيرة تفوح منها رائحة الجبن وخبز الأذرة والحلبة التى يمكنك أن تدركها وأنت منهن على مسافة بعيدة .

دق العامل الجرس فصفر القطار وبارح الافريز فى بطء .

ومر الشيخ بناظر المحطة فتقدم الأخير لتحيته وقال وهو يبتسم ـ "أهلا بعمدتنا حمداً لله على سلامتك ."

فصافح الشيخ عفيفى اليد المبسوطة اليه وقال :

ـ "شكراً يا جرجس افندى . أليست لنا خطابات

لديـــك ؟ "

ـ "كلا لم يرد شيء باسمك . "

سار الشيـــخ واجتـاز البـاب الذى يؤدى إلى خارج المحطة فألفى خادمه (السيـــد) ممسكا بعنان فرسه الأبيض . وكأن الفرس قد استطال الوقوف فكان يبدل قوائمه الواحدة بعد الأخرى فى ملل ؛ ويطوح بذيله الغزير الشعـــر ليطرد الذباب الذى كان يؤلمه بقرصاته . وكانت رأسه لا تنفـــك عن الحركة وهى تجذب معهـــا يد الخادم الذى ظـل يرقب الطريق مذ سمع القطار يدخل المحطة . ورأى سيده مقبـــلا فرفع العنـــان فوق عنق الجواد ثم تفقد رباط السرج ومسح بيده فوق كسوته المخملية الحمـــراء وأمسك بالركاب وانتظر . وتقدم العمدة من الجواد وأومأ برأسه إلى خادمه وكانت تلك تحيته فرفع الآخر يده بالســـلام وهو صامت . ثم عاد يمسك بالركاب حتى صعد سيده واعتلى المطيـة . ولمس الشيخ بطن الجـــواد بطرف ركابه فاندفع يجرى فى الطريق يتبعه الخـادم على مسافة طويلة . أخذ الشيخ يهدىء من حدة الجواد ورغبته فى العدو ، فهو لا يبغى اليـــوم أن يطلق له العنان ليقطع به الطريق فى بضع دقائق . ولان الجواد تحت جذبات العنان التى كادت تدمى شدقيـــه وراح يخبو فى خطـــوات قصـــيرة .

وكانت الساعة قد جاوزت الســادسة بقليل والشمس قد

هبطت حرارتها وخف هجير القيظ وسرت فى الطريق الذى تحفه أشجار الصفصاف العالية نسمات رقيقة منعشة . وكان الطريق ممهداً لا يتجاوز عرضه عشرة أمتار يمتد أمام البصر مسافة بعيدة حتى يتلاشى فى بطن الافق . وكان الشيخ فى شاغل عن الاستمتاع بمشاهدة الحقول التي استحال بعضها إلى مساحات خضراء ترتاح العين إلى لونها الهادىء الجميل ؛ والبعض قد نمت فيه أعواد الحب التى أنضجتها الشمس فراحت تميل تحت أثقال حملها فى تراخ وانكسار . وكانت سنابل القمح الصفراء المتلاحمة تطغى .. بين المراعي السندسية فتبدو بينها ككثبان من الرمل الأصفر فى واحة خضراء واسعة .

وقطع اكثر من نصف الطريق وهو صامت . وأخذت بيوت القرية تبدو من بعيد كنقط سوداء فى الأفق . ونمكن (السيد) بقوة قدميه أن يكون على مقربة من جواد سيده الذى أخذ يتبختر فى مشيته . أدار الشيخ رأسه إلى الخلف فرأى الخادم يتطلع إلى الحقول ومبلغ انتاجها بعين العارف الخبير فقال ـ

ـ " الجهاز وصل يا سيد ؟ "

تنبه الخادم وأسرع فى خطاه حتى حازى سيده وقال ـ

" ايوه يا حضرة العمدة جه البارح فى المركب . "

فزام العمدة قليلا ثم قال ـ " هيه . ولا حصلش كلام ولا

حديت فى البيت ؟"

سكت الخادم وبدت عليه دلائل التردد ، وأخذ يحك مؤخر رأسه بأصابعه . خشى أن ينقل إليه ماحدث فيغضب سيدته ولكنه اعتاد الصدق مع مخدومه ولا يذكر أنه كتم عنه شيئا يستخبره عنه فقال بصوت متلعثم :

ـ " بس الست الكبيرة زعلت و . . . وعيطت . "

ـ " ينفلقوا هو أنا خرقت خرق فى الاسلام . "

وكأنه اطمأن إلى ذلك الخاطر الديني الذى حضره فى تلك اللحظة . فهو لم يتعد حدود الشرع فالزوجة الجديدة هى الثالثة وله فى ذمة الدين أخرى رابعة لا يعلم ان كانت الحاجة ستدعو إلى التفكير فيها أم لا . وهو لا يدرى لم تألم المرأة وتتكدر إذا رأت لزوجها حليلة غيرها . هل تريده وقفاً عليها مدى العمر ؟ الا تحس المرأة بأنها تكبر وتتقدم بها السن ويذوبها الحمل والوضع ، وان الرجل ينشد الجدة ولا يرضيه الكبر ولا الذبول . هى المرأة مادام لها حسنها ونضارتها أما إذا ذوى منها الحسن وراحت الى خريف حياتها فليس الرجل بمبتغيها وفى بنات جنسها الكثيرات اللاتى يشبعن حاجته . ولهذا كان يحرص الشيخ عفيفى على تغيير نسائه إذا طالت عشرتهما معه . وهو اذا إستعرض أيامه مع زوجتيه الأولتين ألفاهما قد غنمتا من عمره وشبابه حظاً كبيراً ولا يحسب أنه ظالم لهما اذا بنى بثالثة وهما

تستوفيان حقهما من الحياة فى كنفه . الأولى ابنـــة عمه التى
شبت معه فى البيت وكان لا يرى فيهـــا وهو بعد غلام الا
رفيقة اللعب التي تصحبه فى الذهاب إلى الحقول لجمع الفـــول
وكيزان الأذرة الخضراء يشويانهـــا فى فرن البيت ويأكلانها
معاً . أو تركب معـــه حماره الصغير يقطعـان به الطريق إلى
المحطة ذهاباً وجيئة . وكان يعدهـا أختاً له ولا يذكر أن
نظرته اليهـا قد جاوزت ذلك التقدير حتى بلغ الخـامسة عشرة
من عمره فبدأ يحس شيئا جديداً يختلج له جسمه كلمـــا مس
عضواً من أعضاء (مسعودة) . أصبحت فى عينيه مخلوقاً آخر
يجد لذة فى التقرب منه بل والالتصاق به . وأدهشهـــا منه
ذلك الشعور فكانت تبـــاعده عنها وتتدلل فى اجابة دعواته
الى الرياضة فى الحديقة أو الســـير فى الحقـــول . وكانت
الصغيرة دونه بعامين ولـكنها لم تـكن لتقل عنه نمواً أو نضوجاً.
فصل الأهل بينهما ولم تعد زوجة العم تسمح لهما بالانفراد .
أزوجه أبوه منهـا وهو فى السادســـة عشرة وليس يدرى لم
بـكروا بتلك الرابطة وهما بعد طفلان كبيران . إلا أن الزواج
قد سره فقـــد كان فى بدء مراهقته ولولاه لالتمس كلاهمـا
طريقاً آخر لاتصاله برفيقه . وعاش معهـا وهو لا يعرف من
الحيـــاة إلا أنها طعام وشراب ونوم يتكرر يوماً بعد يوم .
ولم يكن له من عمل إلا الاشراف على مزارع أبيه الواسعـــة
بعـــد أن أخرجه من المدرسة واكتفى بما حاز من نصيب

قليل من التعليم .

وتوفى أبوه وهو فى السادسة والعشرين وآلت اليه ولاية الحكم فى القرية . فبدأ يرى الحياة على صورة أخرى تبعث على الزهو وقد اجتمعت له القوة والسيطرة فى القرية . نزع الى التجديد فغير من بناء البيت القديم وأنشأ فيه (سلاملك) ومنظرة للضيوف ، وغرفة كبيرة يجلس فيها للفصل فى أمور أهل قريته . والتفت الى زوجته وأولاده فاذا هم لا يرضونه كثيراً فالزوجة لا تختلف عن خدم البيت فى شىء . فهى طوال يومها فى غرفة الفرن أو فى أوكار الدواجن تشارك الخدم فى حلب البهائم وتجهيز الألبان والجبن . والأولاد قد أهملوا اهمالا تاماً لا ينقطعون عن اللعب فى التراب أو فى حظائر الحيوانات فيبدون فى هيئة قذرة تمجها النفس . تبرم بهذه الحال وزهد زوجته وأولاده وفكر فى انتخاب زوجة جديدة بغير أولاد لا تولع بالحلب ولا الخبز . لم يجد عناء فى التزوج من ابنة أحد تجار دمنهور فأسكن ابنة عمه وأولادها بيتاً ريفياً فى نهاية القرية وبعث اليها ببقرها وطيورها لتعنى بها كما تشاء . أغضب ذلك ابنة العم فكيف يقدم على الزواج من غيرها . ولكنه قطع لها الوعود بأن لا ينساها وأن يكون لها من الحقوق ما للزوجة الجديدة .

وجاءت العروس بأثاثها الجميلة . فبدا البيت فى حلة نظيفة

حلوة . وكانت لها جـــدة وفتنة أكرهتـــه على السكون اليها ردحاً طويلا . ولم تقنع (نفيسة) الا أن تـكون لها ليلتان ولضرتهـا ليلة واحـــدة . صار ينتقل بين البيتين ؛ وكان شاقاً عليه هذا الواجب ففـكر فى الانفصال عن ابنة عمه. ولـكن صلة الدم والقرابة والأولاد التي له منهـا هذه كلها أكرهته على استبقائها . وقنعت المسكينة بنصيبها من عطفه وتردده عليهـا مرتين فى الاسبوع . وثارت العروس الجديدة لأن (شوق) زوجـــة أبيه كانت قطب الرحى وصاحبة الأمر والنهى فى البيت . كانت قوية النفوذ ولا يمكن لشخص أن يبرز بجانبها . وهو برغم مايصفونه به من البطش ونفاذ الـكلمة، كان يرى نفسه أحياناً يطيعها اطـاعة الطفل لأمه . وسخرت شوق من تلك الفتاة وتركتها تصخب و يتردد صوتها فى البيت حتى أعيتها الحيلة وهى لا تجـــد من زوجهـا عوناً ولا نصرة. نخفت صوتهـا وراضتها المرأة القـــوية فراحت تسير تحت أمرتها فى خضوع .

مضى على زواجه من نفيسة الآن أربعة عشر عاماً ولا يدرى كيف مرت تلك السنون وأصبح فى حـــدود الأربعين . ولم يـكن يزعجه شىء كازدياد عـــدد أولاده ؛ فابنة عمه أصبح لها ثمانية أولاد والثـانية خمسة . وقد يسائل نفسه حيناً عن اسمائهم فيغيب أكثرها عن باله . وقـــد يسمع ان احداهما وضعت مولوداً جديداً فتمر دورة النفاس بل وتمضى الأشهر

ولا تقع عيناه عليه . فليس يحرص على ذلك كثيراً . وكان كثير التردد على الاسكندرية ولشد ما كان يسر من رؤية فتياتها ذوات الوجوه البيضاء والقدود السمهرية . كانت تعجبه خفتهن فى السير ولفتاتهن الساحرة . وأين نساؤه المتهدلات الأجسام اللاتى يشبهن العجول من هاته الغزلان الوثابة . واذا كان قوم موسى وهم يطعمون المن والسلوى قد قالوا لنبيهم انهم لا يصبرون على طعام واحد فهو ليس بالملول المتقلب اذا زهد كلتا امرأتيه ومل صحبتهما الطويلة واشتهى فتاة من فتيات الحضر.

وكان يعرف صديقاً من أهل الاسكندرية فكاشفه برغبته فى الزواج. فسرعان ماقدم له احدى قريباته ممن تلقين التعليم بالمدارس وعقد له عليها؛ ولم ير أهلها غضاضة فى هذا الزواج وهم يعلمون بان له امرأتين فى القرية وسرباً من الأولاد فهو فى نظرهم عمدة ذو ثروة وكفى . وعاد اليوم من الاسكندرية ليتأهب لاستقبال العروس بعد ايام قليلة . . . .

☆ ☆ ☆

وأشرف العمدة وخادمه على القرية وهما صامتان. وسمعا ضجيج آلة الطحن التى تقع فى طريقهما فانتبه الشيخ عفيفى من تفكيره الطويل واستعراض حياته السابقة . وكان بجوار الطاحون رهط كبير من القرويين فما ان رأوه حتى نهضوا لتحيته فألقى عليهم السلام واستمر فى سيره حتى بلغ الدار فترجل عن جواده ودخل المنظرة .

☆ ☆ ☆

وجاءت الزوجة الثالثة .

وشغلت الطابق العلوى من البيت وراحت الزوجة الثانية تقيم مع أولادها فى أسفل الدار . وهكذا نزلت (نفيسة) عن عرشها لتتبوأه ضرتها الجديدة. لقد انبأتها (شوق) سيدة الدار منذ ثلاثة شهور بأن العمدة سيتزوج من فتاة حضرية، وصحبته يوماً الى الاسكندرية لترى العروس وعادت تشيد بجمالها و تتحدث عنها فى كل حين وتحط من قدر (نفيسة) وتقول انها قد تخطت حدود الشباب وكثرت أولادها ولم تعد تصلح للعمدة . يالها من امرأة قاسية . الا تعلم قلوب النساء وهى واحدة منهن ؟ . أكان يرضيها وقد كانت يوماً زوجة لوالد العمدة ان يقال فى حضرتها مثل هذا القول ـ ، وان تطمئن لمنافسة جديدة يأتيها بها ؟ ما بالها تحرض العمدة على الزواج من فتاة أخرى وله زوجتان . اما كان من واجبها كأمرأة ذات قلب ان تدفع عنهما ذلك الشر وتحول دون وقوعه ؟ . ما الذى تجنيه من أن يملك العمدة زوجتين أو خمساً . أتريد أن تحشدهن فى ذلك البيت الكبير لتهيمن عليهن وتسوسهن كأنهن اماء لها ؟ . يالها من جبارة . ألم تخضع العمدة كله و تطويه تحت ذراعها وهو الرجل الذى اذا بدا فى الطريق أو فى صحن الدار سكنت الأصوات وحبست الأنفاس فكيف لها وهى الضعيفة ان تتذمر أو تثور . أربعة عشر عاماً قضتها فى ذلك البيت وهى ليست تدرى أخادم هي أم زوجة

لرب البيت . تزوجت وكانت تحسب أنها ستنعم بكل مايؤديه لفظ الزوجية من معانى الحب والتقدير والهيمنة على شئون الدار؛ فاذا كل الأمانى احلام كاذبة؛ واذا هي فى كنف رجل لايقيم لشخصها وزناً ولايرى فيها الا أداة لأشباع غرائزه - ، واذا الدار بمن فيها تأتمر وتسير بيد واحدة هى يد (شوق) . صبرت لأنها عرفت من أبويها ان الزوج له الطاعة وخاصة اذا كان من ذوى السلطان كزوجها العمدة . ولم يكن يهون عليها الحياة الا ان ترى من زوجها بعض الميل نحوها والتفضيل على الزوجة الأولى . ولكن ليت هذا الميل البسيط قد بقى لها فهاهو اليوم يلقى بها كما يلقى بردائه الخلق ويستبدل بها أخرى جديدة . لقد عادت الرواية تمثل من جديد وأصبحت ترى لها ضرة ثانية تشاركها فى زوجها كما شاركت هى الزوجة الأولى فى ذلك الرجل منذ أربعة عشر عاماً .

ولكن كيف تعيش معها تحت سقف واحد؟ لقد رأتها بالأمس وهى مقبلة فى ثياب العرس فاذا هى صغيرة وجميلة حقاً . ورأت أثاثاتها التى وصلت قبلها ببضعة أيام فاذا فيها كل أسباب الراحة والمتعة والفتنة . رياش وطنافس . وأرائك ووسائد حريرية . ان العمدة سيغرق فى هذا الترف الى أذنيه . فعزاء لها ولضرتها القديمة التي تعيش فى نهاية القرية . لقد دالت دولتاهما وأتاهما عدو جديد بأسلحة قوية لاقبل لهما بها . استشعرت الآن عطفاً على مسعودة وان كانت لم

ثر لها وجهاً فى تلك السنوات الطويلة . أليس أمامها عــــدو مشترك ؟ ان مسعودة لمسكينة فقـــد انتبذت لها مكاناً قصياً وتركت لها البيت وحال ذلك دون ان ينشب بينهما نزاع . ولكن الحال ليست كذلك مع العروس الجديدة ؛ فقد أنزلتها من الطـــابق الذى تسكنه وستراها أمامها فى كل وقت وهى ليست تطيق هذه الحياة . ان البون بينهما شاسع فانى لها تلك السن الصغيرة ، وذاك الحسن الخلاب والاغـــراء الجارف . حيـاة عسيرة مضنية تلك التى تتفتح أمامها اليوم وفى جـــوها سحب وغيوم ....

* * *

واتكأت (سمـــيرة) على حافة النافذة وأخذت تحدق فى الأشجار التى تملأ حديقة البيت . وكان النهار يوشك أن يولى والطيور فى صيـاح وتنقل فوق فروع الشجر وعروش العنب الممتدة فى جوانب الحديقة . وكاد يسحرها صفـــاء الجو وانبساط الأديم أمامها فى حقـــول خضراء مترامية . ولكن آلمهـــا أنها لا تملك أن تسير بينها أو تجلس فى ظل شجرة تستمع لصوت الطيـــور أو خرير الساقية يحمله اليها النسيم الخفر المعطر . حتى الحديقة التي تحيط بالدار لا يسمح لها بالجلوس فيها ، فهى زوجة العمـــدة التى لا يجب أن تقع عليها الأبصار . انهـا لتحسد تلك القروية الساذجة التى تضرب فى مهاد القرية سافرة تنعم بجوها وجمالهـا وتشارك زوجهـــا

فى راحته وكده . أليست أحسن منهــا حالا وهى الحبيسة كالدابة تعقل ويلقى أمامها بالطعام لتعلف وتسمن .

جو غريب ذلك الذى تعيش فيه منـــذ شهر واحد . جو تسوده الحسية الوضيعة والدسائس ، والاذلال والضيق . فقد أصبحت زوجة بل أمة لرجل نهم ثائر العاطفة ، يحسب أنه ابتاعها من أبيها بالجنيهات التى أنقده إياها . رجل لا يرى المرأة إلا وسيـــلة للاستمتاع فاذا عافتها نفسه راح يستبدل بهـا أخرى جديدة . ألم تلك هى الزوجة الثالثة التى أتى بها بعـــد إذ مل الأولتين . أتى بها وأودعها فى جناح خاص لا ترى فيه أنيساً غير الخدم. ولا تراه إلا إذا دخل الليل وكانت نوبتها قدحلت بعد ضرتيها . حتى الطعـــام لا يتناوله معها فهو لا يأكل مع أحد بل يجلس فى منظرته إلى المائدة التي تحوى أطيب الألوان وأحسنها فيلتهمها وحده وما تبقى من فضلات فهو لنسائه وخدمه.

كانت تفهم من الزواج غير ما تراه يمثل أمامها الآن ـ . تفهم منه ارتباطـــاً روحياً أكثر سمواً ممـا تحسه الآن، وتفهم منه أن يعنى الزوج بزوجته ويجلس اليهـا فى فراغه ويشعرهـا بقيمتها وتقديره لها . لم تك تظن أو يجرى لهـا ببال أن العمدة مخلوق ليس من طينة أهل المدن يرى الزوجة كقطعة من أثاث البيت . لقد أنبأها أبوهـا بأنه موسر يملك ضياعا كثيرة وله زوجة (فلاحة) تزوج منهـــا وهو صغـير وأسكنها بيتـاً خاصاًوستصبح هى ذات الشأن والمكانة لديه . ولـكنهـا

ترى الآن غير ما كانت تسمعه . ترى زوجة ثانية تساكنها في نفس الدار ؛ وهي وان كانت دونها جمالا ونضرة إلا أنها امرأة ولها قلب . امرأة سايرت ذلك الزوج ردحا طويلا وأخلصت له المودة فتنكر لها في النهاية . وهل تطمع هي في اخلاص رجل كهذا مقسم العاطفة ؟ لقد أظهر لها ميلا كبيراً ولكنه ميل حسي رخيص لأنها جديدة في عينيه ولكل جديد رونق وبهاء .

ان القشعريرة لتسري في بدنها ويتندى جبينها خجلاً وهي تستعرض تلك الرابطة التي توثقها به ومدى ما انتهت اليه من الحقارة والضعة . أتكون زوجة حقاً وهي لاترى بعلاً تسكن اليه وتلتمس منه ايناساً في وحدتها المرهقة . أتكون زوجة راضية وهي تقضي ليالي بمفردها في غرفها الواسعة ورجلها في أحضان احدى ضرتيها ؟ أي نفس لاتتقزز وأي قلب لا يتحطم اذا كان الجسد هو كل مايبتغيه الرجل من المرأة . حياة لاتحتمل . حياة فيها الاذلال كله ؟ . أيدري أبوها ماتعانيه الآن ؟. هل جنت شيئاً من مال زوجها الكثير أوجاهه العريض الذي كان يتحدث اليها عنه . هاهي حبيسة لا ترى الدنيا ولا تستمتع بها الا من خصاص النافذة . وطعامها يؤتى به اليها في غرفتها لتأكله وحدها أو مع تلك المرأة الكبيرة التي يسمونها (شوق) . وهي امرأة لمست فيها الكثير من الدهاء والحزم . طالما حدثتها عن العمدة وطباعه الشاذة وأوصتها

بدوام العنـاية بزينتها أمامه حتى تحلو فى عينيه وتنسيه ضرتيها .

لم تر لها أنيساً الا خادماً انحـــازت الى جانبها تنقل اليها كل مايجرى فى أسفل الدار . وهي أخبار تجـــد فيها الـكثير من الغرابة واللذة . وقد حدثتهـا عن (الست شوق) ونفوذها وعن سيدها العمـــدة وما يجهزونه له من طعـام خاص فى بعض الليـالى التى يميـــل فيها الى الشراب وانها رأت يوماً دولابه الخاص الذى بالمنظرة مفتوحاً فادهشتها زجاجات الخمر المنوعة التي تملأه .

ولـكن أشد ما كان يعنيها من ذلك كله هو أخبـــار ضرتها (نفيسة) وما ترتديه فى كل يوم وما تتحدث به عنها . وكانت الخادم الخبيثـــة تتجسس على تلك الضرة وتنقل كل حركاتها اليهـا . وبالأمس أخـــبرتها انها علمت من خادم العمدة انه اشترى لسيدته (نفيسة) علبـــة من دهان الوجه الأحمر من دمنهـــور حينما كان فى مهمة هنـاك وانها استحلفته أن لا يبوح بذلك لمخلوق فأغرقت حينذاك فى الضحك .

ولـكن لم تضحك هى من محـــاولات خصيمتها ؟ أليس هو قتال وتناحر بينهما لاجتذاب الزوج المشترك ؟ وهل يلام الخصم اذا استعان على قهر عدوه بما يختار من سلاح أو خداع؟ وهي الصغيرة الجميلة التى لاتخشى الخذلان فى ذلك الميدان ـ ؛ مابالها تندفع على كره منها الى الوقوف أمام المرآة لتصلح من زينتها اذا علمت أنه آت لقضاء ليلته عندها ؟ . أكانت تفعل ذلك

لو كانت هى زوجته الواحـــدة أم هو الصراع الذى يدفعها بالرغم منها الى الرياء والكذب على نفسها . اما كان يجدر بها ان تنبذه وتزدريه ولاتحفل بوجوده وان تصارحه بكرهها هذه الحياة ومقتها تلك العلاقة التى لا تطمئن اليها النفوس الأبية . . .

* * *

سميرة . بنت يا سميرة .

دوى صوته باسمها فى الردهة الخارجية فانتبهت لذلك النـــداء وتحولت عن النافذة بسرعة وقد شق الصوت أذنها فى قسوة . لم تدر أهى المقصودة به أم سواها فهى لم تتصور أن يبتـــذل ذلك الزوج وينحط إلى درك السوقة ويناديها كما ينادى خادمه . غلت الدماء فى عروقها ونضح وجهها بحمرة شديدة وشعرت كأن جبينها قد اكتوى بالنار . وبدا فى مدخل الغرفة بجسمه الكبير الذى يملأ فراغ البـــاب وقال حين أبصرها أمام النافذة ـ

ـ« لقد بحثت عنك فى كل الغرف وناديتك فلم لا تجيبين ؟ »

ظلت صامتة وهي تحدق فيه بعينين تشع منهما لهب من الحقد والغضب وجسدها يرتعد ، وأناملهـــا تـكاد تسحق فى راحتيهـــا .

دهش لانقـــلاب سحنتها ووقف فى مكانه بعد أن هم بالاقتراب منها ، وصار يتطلع اليهـــا واهدابه ترف باستمرار وهى لا تفتـــأ تحملق فيه وأنفاسها تتردد فى غير هوادة . دنا

منها خطوة وقال متعجبا - " ماذا بك ؟ "
رفعت يدها كأنها تمنعه عن الدنو منهـــا وقالت فى حدة
- " أكنت تنادينى ؟ "
- " طبعاً . ناديتك بعد أن افتقدتك فى الغـــرف الأخــــرى . "
ندت عنهـا ضحكة مرة ثم عضت شفتهـــا السفلى بشدة وصاحت وهى تهز يدها - " ألا تخجل من ذاتك أيهـا الرجل . أبلغ بى الهوان فى عينك أن تساوينى بخدمك وتنـــادينى ذلك النداء الشائن ؟ ..
" بنت يا سميرة ! " هيه شىء جميـــل .. لم يبق إلا أن تلبسنى غداً الثوب الأسود وترسلنى لكى أجلب لك المـــاء من الترعة فى الجرة . يجب أن تعـلم أننى لست ممن يقبلن هذه المعاملة أو يرتضين هذه الحياة وكفانى ما لقيت منك من عنت ولست بباقية معك لحظة بعد اليوم . "
بهت الرجل لتلك الفتاة المهتاجة وأدهشه كل الدهشـــة أن يـكون غضبهـــا لمناداته إياه على تلك الصورة . فهكذا ينـــادى هو نسوته وخدمه وهكذا يجرى لسانه كلما استدعى أحداً فما بالها تأنف وهم لا يأنفون . بل هو لينـــادى الرجل رب الأسرة بلفظ (ولد) فيستجاب دعاؤه بغـــير امتعاض - أهى أرفع منهم شأناً . ما هــــذه الضجة . وما هذا التحدى . لو كانت رجلا واجترأ على هذا القول لكان الليـــلة فى عداد

الأموات . أزاح الجبـــة عن صدره وغرس يده فى حزامه وأخذ يرمقهـــا بعينيه الصغيرتين فى استخفاف ظاهر ثم هز رأسه وقال متهكماً ـ

ـ " لا تودين البقـاء معي بعد اليوم . ومن الذى يـكرهك عليـــه . إن من يرى هـــذه السحنة المنكرة ليحسب الأمر عظيما ذا خطورة . أتمنعينى عن أن أدعوك كما أدعو النـاس ؟ أأنت خـــير من نفيسة ومسعودة ؟ انى لم اعتد أن أسمع للمرأة صوتاً فى هذا البيت فهل أتيت لتربينى فى آخر الزمان "

وكأنه لا يزال فى عجب من تلك الثـــورة ودهشة من أن تقف منه امرأته هذا الموقف فأخذ يدق كفاً بـكف ويردد فى استمرار " عجايب والله العظيم عجايب " .

انفجـــرت سميرة وقد طفح غيظها المـكبوت لهـــذا الاستخفاف والتحقـــير وصاحت ـ " من هاته النسوة اللاتى تساوينى بهن . أهما زوجتـــاك ؟ لقد جرت عليهما وأذللتهما ففقدتا كل اعتبـــار وكرامة وأصبحتا كالسائمة التى لا رأى لها ولا تفـكير . أهـكذا تريدنى أن أكون مطواعاً ذليـــلة . أتمرغ بين قدميك لا يرتفع صوتى بشكاية أو احتجاج ؟ ؟ ها . ها . هـــذا لن يـكون . استبق سياستك هذه لغـــيرى أما أنا فقد أعلنت عصيانى من اليوم . لقد مر بى هذا الشهـــر كأسوأ ما تمر الأيام بالناس ولا أحسب أن فى طاقتى أن أحتمل أكثر مما فات فيها وابعث بى إلى أهلى ، "

استشاط الزوج غضباً وكبر لديه هذا التحدى من امرأة. نعم من امرأة فعهده بالنساء والمتزوجات منهن خاصة طائعات كالنعاج لا يجرؤن على التذمر أو معاندة الأزواج -؛ فما بال هذه اللعينة تشن الغارة عليه وتحاسبه هذا الحساب العسير. تقدم منها وهو يزفر ويصر بأسنانه غيظاً وحقداً وأمسك يدها بقوة حتى كاد يسحقها بقبضته وقال. - " من أنت حتى تقفين منى هذا الموقف؟ أتحسبيننى أقيم لبقائك أو ذهابك وزناً. أقسم برأس أبى الا غادرت بيتى هذه الليلة. "

صاحت سميرة متألمة وهو يدفعها بعيداً عنه. وسقطت على أريكة وقد أمضتها تلك القسوة والمهانة. ولكنها مالبثت حتى هبت واقفة وقد اعتزمت أن تغادر ذلك البيت بعد أن ينتهى بينهما كل شيء. تغادره بعد أن يفصم علاقته بها فصماً قاطعاً، فقالت وهى ترمقه فى ازدراء:

- " أهكذا تفعل بى أيها الوحش؟ ما كنت فى حاجة إلى قسمك لكى أبرح هذا البيت؛ انى لمبارحته على الفور ولكن بعد أن تقسم ذلك اليمين الذى يقضى على كل ما بيننا من رباط فهل أنت فاعل؟ "

أطال التحديق فيها وهو ينتفض وصدره يعلو ويهبط ولم يشعر إلا وهو يقول - " اذهبى فأنت طالق ثلاثا. " واستدار نحو الباب وغادر الغرفة.

* * *

وكان المؤذن يختم اذان العشاء والقرية هادئة . . .

ووقف (السيد) بباب المنظرة وهو يلهث من التعب وأخـــذ يتطلع الى العمدة الذى كان متربعاً فوق أريكة واسعة وفى يده مقبض (الشيشة) يسحب منه أنفاساً متتالية يرسلها من فمه فى زفـــرات طويلة مسموعة . وكان وجهه متجهما والغرفة يشملها سكون مقبض خانق . دق الخادم الباب فالتفت العمدة وما ان رآه أمامه حـــتى ترك مقبض الشيشة وقال ـ

ـ " هيه . انت جيت من المحطة ياسيد ؟ . "

فأجاب الخـادم بصوت خافت متقطع ـ " ايوه ياسيدى وركبتها القطر بالسلامة . "

ـ " شوف ازاى ياسيد أنا نسيت أقـــول لك تضرب تلغراف لأهلها علشان ينتظروها . "

ـ " أنا شفتها ياسيدى دخلت المحطة وضربت تلغراف . "

ـ " صحيح . طيب روح انت بقى . "

وعاد العمدة يدخن ولا يفتأ يستعرض حادث اليوم ويعجب لتلك السرعة التى قطع بهـا العلاقة بينه وبين زوجته الحضرية . هو لايضيره امرأة تذهب وأخرى تجىء ولـكنه كان يرى فى تلك الفتـــاة لوناً من المتعة لم يلمسه فى زوجتيه الباقيتين. كانت صغيرة وجميلة . ولـكن أكان يطيق منها هذا الـكبرياء والتحدى وهو الذى لم يألف ان يقف أحد فى سبيله . لقد سبته ونعتته بالوحشية وأخيراً صارحته بعدم امكان بقائها

معه . فما الذى كان يفعله غير ان يطلق سبيلها . أيستبقيها لتشن عليه فى كل يوم غارة وتفسد عليه نساءه المستكينات . لتذهب حيث تشاء . ولكن أباها الطيب ماسيقوله عنه . سيصدق كل ماتذكره له الابنة وسيرميه بالجهل والاستبداد ، وسيستقبح منه ان يبعث بها اليه ليلاً بمفردها . ولكن ماحيلته لقد طلبت منها (شوق) ان تقضى الليل معها فى بيت آخر لهم فى القرية حتى يتنفس الصبح ولكنها أصرت على السفر فوراً . انها بنت عنيدة صلبة الدماغ كأكثر بنات الحضر ممن تفسدهن المدارس وتعلمهن الثرثرة والتحكم فى الرجال . فلتذهب لتبحث لها عن رجل من عنصرها يخضع لسيطرتها وتسيره كما تشاء .

وكأنه استراح الى مسلكه مع تلك الفتاة الجامحة فهو كرجل صاحب بأس ومال لايحب أن يكون مطية لمثيلاتها وفى وسعه ان يأتى كل يوم بامرأة جديدة . والآن ماحاجته الى اطالة التفكير لقد انقضى عهدها وانصرم . . وترك الشيشة وصفق بيديه يطلب طعام العشاء . . . .

* * *

ولم تمض شهور أربعة حتى كان الطابق الثانى من دار العمدة مأهولاً بعروس جديدة .

مصطفى

وقف يردد اسماء صحفه بصوت تلمس فيه رقة الحنجرة ورعشة الوجل ، ولكنها صرخات كانت تموت وسط ضجيج الترام وأصوات الباعة فى محطة ترام (المنشية) . وكان يؤلم صاحب النداء أن لا يجد مستجيباً ولا راغباً فى صحفه . كانت عيناه الصغيرتان تجولان فى حيرة بين الجموع الكثيرة التى تصعد الترام وتهبط منه . وكنت تلحظ فى حركات الصبى وجموده فى موقفه ما يشعرك بجهله بأساليب البيع وحداثة عهده بتلك المهنة . فهو يرى السائر يحمل جريدة فى يده فيجرى نحوه ويمد يده بصحيفة ما ولا ينتبه إلى أن الرجل قد يحمل نفس الصحيفة ولا ينتظر أن يبتاعها للمرة الثانية . وهو يظن الناس جميعاً تشترى الصحف وتحسن قراءتها ؛ فيعرض سلعته على كل من يطالعه بوجهه شيخاً كان أو أفنديا أو من لابسى الجلاليب . ولكنه كان يعود بالخيبة فى كل مرة .

وأشد ما كان يؤلمه أن يرى الصبية ممن يحملون الصحف مثله تروج بضاعتهم ويقفزون على سلم الترام وينزلون منه وجيوبهم مفعمة بالنقود الرنانة وهو لا يزال يتأبط صحفه التى

لم تنقص منها واحدة : وناداه رجل من الترام فخفق قلبه وجرى اليه فطلب منه (الأهرام) . ذهل الصبي ولم يدر أية صحيفة يعنيها الرجل . هو ينادى على السياسة والأهرام وغيرهما، وهى أسماء لقنها له أبوه اليوم فقط وميزها له بأشكالها وعناوينها ولكن الأمر أشكل عليه الآن فلا يميز هذه من تلك . وتناول (الجهاد) وقدمه للرجل فحملق فيه قائلا - " أنا عايز الاهـــرام " -

جفل الغلام وعبثت يده المرتعشة فى الصحف العديدة التى يتأبطها ثم جذب منها واحدة وقدمها للرجل . رمى بها فى وجهه ساخطاً وصفر السائق وسار الترام . شيعه الصبي بنظره ثم انحنى وتناول الصحيفة من الأرض والدمع يطفر من عينيه . ظل محدقا فى الترام ثم رفع ذراعه ومسح دموعه بطرف كمه . ودوى خلفه بوق سيارة فانتبه وجرى إلى الافريز يردد أسماء الجرائد قبل أن ينساها .

- وكان الصبي فى التاسعة من عمره، صغير الوجه واضح القسمات، عريض الجبين براق العينين. يرتدى جلباباً من (الزفير) وعلى رأسه طاقية من لونه وقدماه عاريتان . وكانت ذراعه النحيلة تنوء بأعداد الجرائد التى يتأبطها وكلما كل ذراع نقلها إلى الذراع الثانى . وكانت أصابعه الملوثة قد سرى فيها العرق وانطبعت بصماتها على أطراف الصحف فاتسخت وتجعد ورقها.

هى حياة جديدة تلك التى يسلكها (مصطفى) اليوم . لها

رهبتها وغرابتها . حياة اختارها أبوه وآثرها على المهنة التى كان يمتهنها الصبي لدى أحد (السمكرية) إذ كان الرجل فظاً قاسياً يرهق الصبي ويضنيه بالعمل ولا يعطيه أكثر من نصف قرش فى اليوم ليشترى منه غداءه . وفى نهاية الأسبوع يعطيه خمسة قروش كاملة . ورضى الوالد بهذا الأجر الحقير فهو يريد أن يدربه على حرفة يعيش منها ولكن الصبى كان يعود فى نهاية يومه مهدم القوى قذر الوجه واليدين ملوث الثياب فلا يكاد يتناول عشاءه حتى ينطرح على فراشه كالميت . فقد كان كثيراً على الصغير أن يجلس طوال يومه ينفخ فى الكور فيتصاعد منه الشرر الذى يلفح وجهه ويحرق ثيابه . أو يصحب معلمه إلى عمل وهو يحمل على كتفه (الحقيبة) الخشبية التي تحوى الآلات والمطارق الثقيلة . وكان الصبي رغم هدوئه لا ينجو من شراسة معلمه ؛ فكم عاد إلى أمه يشكو ضربه له إن هو أبطأ فى شراء شيء من السوق ، أو كلفه باستحضار آلة فناوله أخرى . ورأى الوالد الابن ينحل ويسقم ويضج بالشكوى من عمله ؛ ورأى الأجر الذى يجنيه منه لا يكاد يقوم بنفقات الصبي ولا يعدل ثمن الثياب التى يستهلكها فى تلك المهنة القذرة . فآثر أن يأخذه معه ليعاونه فى بيع الصحف فهي لا تتطلب من الصبى عناء ولا كداً ولا يمكن أن يقل كسبه منها عما كان يناله من مهنته الأولى .

وأخذه فى الصباح وأوصى به بعض الباعة . وعند الظهر أعطاه

أعداداً من الصحف المختلفة اسماها له وتركه فى ذلك المكان وذهب لشأنه . وراح الصبي يردد الأسماء التى لقنها له أبوه ويسعى لترويجها . وآلمته حادثة الرجل الذى رمى بالصحيفة فى وجهه لأنه لم يعرف كيف يقدم له مايريده . ولكن أما كان لذلك الرجل ان يصبر حتى يعطيه ما يطلبه ؛ أو كان يختار مايشاء من الصحف التي يحملها . هل حرام ان يخطىء فى اسم الجريدة؟ . أليس هو معذوراً اذا اشكل عليه الأمر واختلطت فى نظره وكلها متشابهة الا من عناوين يراها ترسم على أشكال متباينة . لم لا تكون هناك صحف خضراء وأخرى حمراء حتى ترسخ أشكالها وأسماؤها فى الرأس . اما أن تكون جميعها من الورق الأبيض فهذا مما يتعب الدماغ . وهو لا يقول انه بليد ، وانه سوف لا يفلح فى هذه المهنة ؛ انما يريد فقط أن تعاد عليه تلك الأسماء من جديد ليضع كلا منها فى جانب حتى لا ينساه . وراقت الفكرة فى نظره فلا يمكن ان يستمر جاهلاً تلك الأسماء وقد يأتيه زبون جديد فيحار معه وتضيع فرصة البيع . ورأى ولداً يتأبط صحفاً مثله فاقترب منه فى تردد . تطلع الولد فى ذلك الصبى الذى لا يذكر أنه رآه قبل اليوم وأخذ يفحصه من رأسه الى أسفل قدميه فى فضول واستطلاع . ونظر الى يديه فالفاهما مثقلتين بالصحف وقد اتسخت وتثنت أطرافها . ابتسم الولد وقد أيقن ان الصبى حديث العهد بمهنته وانه لم يوفق فى يومه . ورأى منه انكساراً بادياً كما لمح الحيرة تجول فى عينيه فأشفق

عليه وقال وهو يدنو منه :

ـ " انت لسه معاك جرايد كتير ؟ "

حار الصبى ولم يدر كيف يجيب على هـذا السؤال . أيقول انه لم يبع عدداً واحداً للا ن . وان أسماءها قد اختلطت فى رأسه وهو يريد منه ان ينبأه بها ؟ أم يقول انه باع الكثير وهذه بقايا عشرات كان يحملها . ولكن هلا يضحك منه ذلك الولد ويتهمه بالغباوة اذا صارحه بالحقيقة ؟ هو يراه لا يكبره بكثير ؛ وهو لا بد قد باع ما كان لديه فكيف يظهر أمامه بمظهر الجاهل العاجز ؟ كم يود لو يرى أباه الآن فينقذه من ذلك الموقف أو يأخذ منه هذه الصحف ويبحث له عن عمل آخر يحسنه ؛ فهو لا ينبغى أن يكون أضحوكة للأولاد يعيرونه بالتقصير وقلة الشطارة . وكبر الأمر فى رأسه وعظم لديه ان يعترف بعجزه فتكلف الابتسام وقال :

ـ " انا بعت كتير ودول اللى فاضلين . "

دهش الولد وعجب كيف باع الكثير وهو ما يزال مثقلا بعدد جم . فكم كان يحمل اذن فى بادىء الأمر . ثم هو يراه (مرتبكاً) ضعيف الحيلة فهز رأسه ثم سأله ـ " انت من زمان بتشتغل معانا ؟ "

ـ " النهارده بس أبويا وقفنى هنا . "

ـ " هو أبوك بتاع جرانين ؟ . "

لمعت عينا الصبى وقد ملأه الزهو والفخر اذ يتحدث عن أبيه وقال ـ " أنا أبويا المعلم سيد بتاع الجرانين . انت تعرفه .؟ "

فأجاب الولد بلهجة التوكيد كأنه يود أن يظهر لزميله الجديد انه يعرف كل بائعي الصحف بل والمعلمين أيضاً - " اممال مانعرفهوش . "

اشرق وجه مصطفى ولاحت على شفتيه ابتسامة عريضة فقد سره ان يعرف هذا الولد ان أباه معلم كبير ، ولديه صبية كثيرون مثله يسخرهم تحت يديه وقد يكون من الفائدة أيضاً لهذا الولد ان يصادقه الآن فهو ابن (معلم) وربما غضب من معلمه واحتاج الى العمل فيأخذه عند أبيه . وسأله مصطفى : " وانت أبوك بيشغتل ايه ؟ . " فأجاب الولد فى غير تردد : " أنا أبويا بتاع فلافل . "

مط مصطفى شفته استخفافاً بذلك الوالد وقد كان يحسبه ذا شأن كأبيه . وصغر الولد فى عينيه فهو يعرف باعة الفلافل القذرين . ويعرف عم (خميس) صاحب الدكان الذى يلاصق بيتهم وكيف يبدو فى ثياب يقطر منها الزيت ، وكيف يجلس أمام حانوته وقت فراغه يقشر البصل ويشق الباذنجان ويضعه فى حجره . أما أبوه فنظيف ، ولا يمكن أن يلبس ثياباً ملوثة فهى جميعها من القماش الزفير أما يوم العطلة فهو يلبس جلباباً من الصوف وفوقه المعطف . ولديه أيضاً حذاء أصفر عريض غير ذلك الحذاء الذى يلبسه أثناء العمل ، لأنه معلم ولا يليق بالمعلمين أن يسيروا حفاة الأقدام .

ورأى الولد مالاح على وجه مصطفى من دلائل الاستخفاف

حين صارحه بمهنة أبيه. وعز عليه ان لايكون لأبيه فى رأى الناس منزلة محترمة. أهو حرامى أم خطاف؟!! هو ليس بائع (فلافل) فقط بل هو صاحب حانوت ولديه صبي يدق الفلافل فى الهون الكبير. وهو أفضل من بائع الجرائد الذى يجرى فى الشوارع كالحصان ولايربح أكثر من خمسة قروش فى اليوم. ونظر الى محدثه بعين غاضبة وقال بلهجة فيها نذير - "مش عاجبك أبويا؟ دا بيكسب أكتر من أبوك عشر مرات."

وارتفع صوت من الترام فجرى الولد الكبير يلبي صوت المنادى وانتهى بذلك شجار كاد ينشب بين الصبيين المتنافسين.

عجب مصطفى لمهارة الولد وهو يقفز من الترام المسرع. ورأى قبله الكثيرين من الأولاد يحذون حذوه ويصعدون من الشمال ويهبطون من اليمين ويبيعون صحفهم بكثرة. هل هذه الوسيلة الوحيدة للبيع؟ هو يحس بعجزه عن مجاراتهم ولا يذكر أنه أفلح يوماً فى تسلق الترام والقفز منه؛ بل هو لاينسى ذلك اليوم الذى تسلق فيه ترام (كرموز) الذى يجرى فى حيهم وكان قد ابطأ على معلمه وخشي ان يضربه فاستعان بالترام. ولكن الكمسارى فاجأه بسرعة وخاف ان يمسك به أو يختطف طاقيته فنزل وهو يجهل كيف يجب أن تنزل الناس والترام يسير فسقط على وجهه والتوت ذراعه وتسلخت يداه. ولم يشفع له هذا السقوط بل نال العقاب مضاعفاً من معلمه وأبيه.

وشعر بيد تجذب الصحيفة التى كان ممسكا بها فى يمناه وهو

ذاهل فى موقفه فالتفت فرأى رجلاً يدفع اليه بثمنها . شاع السرور فى وجهه وهو يتناول النصف القرش وكأنه أحرز شيئاً لا يقدر فكاد يرقص من الفرح وحار أين يضعه أيتركه فى راحته ويطبق عليه أنامله بقوة أم يضعه فى جيبه ؟ لقد حمل مراراً أضعاف تلك القطعة ولكنه لا يدرى لم هو حريص عليها كل هذا الحرص. ألأنه ضنين بها ان تفقد منه أم لأنها أول ثمرة لعمله الجديد ؟ ومد أصابعه فى جيبه الأيمن وراح يديرها فى جوانبه بعناية فهو يخشى أن يكون هناك خرق مجهول تنفذ منه القطعة وتضيع فلما استوثق من مناعة الجيب أودعها فيه مطمئناً.

أخذ يردد نداءه السابق بقوة . وكأنه كان يحمل طلسما عظيم التأثير فزاد نشاطه وحماسه وصار يعدو فى جوانب الميدان منادياً على صحفه . ولكن الوقت الذى تروج فيه الصحف كان قد فات فلم يوفق مصطفى الى بيع أكثر من ستة أعداد . وحاق به التعب وارهقته شمس الظهيرة المحرقة فراح يستند الى سور الحديقة التى تقع فى نهاية الميدان.

أخذت أنامله تتحسس القروش التي جمعها ويعدها مثنى وثلاث وهى فى جيبه ؛ وكان يستشعر لذة كبيرة فى لمسها وعدها وود لو كان قد باع كل صحفه وامتلأ جيبه بالقروش .

وجاء أبوه ورآه مستنداً الى سور الحديقة والصحف لاتزال تملأ يديه فصاح به وهو يدنو منه :

ـ " انت ياولد مابعتش حاجة ؟ . "

جفل الصبي وارتعد جسمه وأسرع فاخرج القروش من جيبه ونشرها فى يده المبتلة بالعرق وقال وهو يرجف :

- "أنا بعت بدول ."

حدق الوالد فى يد الصبي فاذا بها ثلاثة قروش . تعقدت ملامحه من الغضب وانتزع القروش وهو يكاد يهشم راحته بأصابعه القوية ثم بصق على الصبي قائلا :

- "هو انت تنفع الا لمام (سبارس) ياابن الكلب . بقى تضيع النهار على ست جرايد بس ."

ارتد الصبي الى الوراء خشيةان يبطش. به وتساقطت دموعه لأنه غير راض عن نفسه ، وانه أهل لذلك التعنيف والتعيير الذى يسمعه من أبيه . ورأى الوالد دموع الابن ولمح أثر الجزع والمذلة على وجهه نخف غضبه وازدرد ريقه ثم مد يده وتناول الصحف منه وسار يتبعه الصبي وهو ينشج ويمسح عينيه .

* * *

ومضى من الليل شطر كبير وانتهى المعلم سيد من محاسبة (صبيانه) على ما باعوه فى يومهم واصطحب ابنه وسارا إلى البيت . وكان الصبي مكدوداً مبتئساً ، فقد أعياه الوقوف سحابة يومه وأعطاه أبوه أعداداً من صحف المساء فلم يوفق فى بيعها التوفيق كله فاغتم لفشله وحقارة مجهوده . وكان الوالد رغم انتهاء عمله لا يزال يفكر فى كل ما يرتبط به . فهو يعاود حصر كل ما جمعه فى يومه من الأولاد ويثبت فى ذهنه النقود التى لايزال يداين بها البعض منهم . ويستذكر ان الغد هو يوم

السبت وسيكون لديه أكثر من مجلة واحدة تظهر فيه غير الصحف المعتادة وهي تحتاج إلى عناية ويقظة . فهو يخشى مغالطة أولئك الشياطين الصغار الذين يتلقفون منه الصحف والمجلات بكل حماس ليسارعوا إلى بيعها قبل غيرهم . وهو لا يمكنه أن يحصي كل ما يتناولونه من يديه ولا في استطاعته أن يمهلهم حتى يستوثق مما يأخذون ، فبيع الصحف مهنة قوامها السرعة في التوزيع وانطلاق الأولاد في الشوارع ليمتلكوا السوق قبل سواهم ، وهو يستأجر لذلك سيارة تنقله من محطة السكة الحديدية حيث يتسلم الكمية الخاصة به وتنطلق به إلى ميدان المنشية حيث ينتظره أعوانه فينثرها بينهم وينتشرون بها كالجراد في كل مكان . وإذا انقضى اليوم اجتمعوا حوله وناوله كل منهم حسابه . وهو جد واثق أن البعض منهم يمكر به ، ولا يؤدي كل ما يجب عليه دفعه . وهو حيناً يأخذهم بالعنف وطوراً باللين حتى يكتسب قلوبهم ويستبقي مودتهم ، ولا مناص من اغماض العين عن الكثير من خداعهم ؛ فهو برغم ما يضيع بينه وبينهم من حساب ، وما تهضمه ذممهم من مال الغير غانم رابح . ويحمد الله ويقبل يده ظهراً لبطن فقد أصبح معلماً محترماً ولا يضيره أن يطمع البعض منهم في قرش أو قرشين فهم بعد صغار لا يعقلون ، ولا يجب أن يقتر عليهم أو يضيق من كسبهم والا انفضوا من حوله . بل هو ليذكر أنه كثيراً ما كان يخادع معلمه حين كان في مثل سنهم ويأكل بعض حقوقه ؛ ولم يك يظن أن في ذلك سرقة

بل هو عوض عن تعبه وتفانيه فى خدمة ذلك المعلم الذى لم يكن يشق مثـــله .

وتفقد ابنه فالفاه على مسافة بعيدة منه يمشي متباطئاً فوقف حتى يلحق به . وتقدم الصبى ولمس فيه الوالد الأعياء والتعب فأمسك بيده وسارا معاً . لم يشأ أن يحدثه عن اخفاقه فى عمله . فهو عاد يذكر يوم باشر تلك المهنة وكان أكبر من مصطفى سناً ؛ وكيف لاقى عنـاء كبيراً فى أيامه الأولى حتى استوعب اشكال الصحف وأسماءها ؛ وكيف افتن بعـد ذلك فى ترويجها وصار الآن معلماً يجني ربحه بأقل عناء وجهد . فـلم لا يعطي ابنه فرصة تمكنه من الالمام بمهنته .؟ عاد يندم لضربه الولد فى أول يوم يظهر فيه معه . هو ابنه البكر الذى سيشب ويخلفه فى حيـاته . وكم غضب يوم أخبرته (القـابلة) أن زوجته قد أنجبت بنتاً فلم يكن يود أن يكون أول خلفه من الأناث . البنات ! قصف الله رقابهن فهن مجلبة للعار والشنار . وليس من ورائهن إلا الخســارة والفضيحة . أما الولد فان صلح أو فسد فهو ولد لا يعير الانســان به . وجاءه مصطفى بعد البنت الأولى ففرح واطمأنت الزوجة بعد أن أقسم أن يطلقهـا إن لم تعقب له ولداً .

وفى يوم (السبوع) أقام احتفالا كبيراً من أجل ذلك المولود دعا إليه كل المعلمين وأصـدقاءه الكثيرين . وهم لا يزالون يتحدثون عن تلك الليلة وما ذاقوا فيهـا من طعـام

وشراب . وترعرع مصطفى واختصه بحبه ؛ وبلغ السادسة ولا تزال تتدلى من عنقه التمائم والأحجبة . وكانوا يلقبونه (بصفية) ولا ينادونه إلا كما تنادى البنات حتى لا تصيبه العين الخائنة . وثقبوا أذنه اليسرى وعلقوا بها حلقة صغيرة من الفضة وأصبح مصطفى أو بالحرى (صفية) دلوعة البيت والحارة . ولم يكن أشهى على قلبه من أن يعلو صوته بين الأولاد وتأتى منه الشكايات فى كل حين . وافرحتاه بمصطفى الذى يكبر ويملأ الحارة بصوته وتضج منه الأولاد بالشكوى .

واشتهت الأم أن يذهب ابنها إلى المدرسة ويلبس البنطلون كمحمد ابن (الست) صاحبة البيت ويحمل الحقيبة فى يده . فما أحلى وأنظف أولاد المدارس . ولكنه سخر منها وقال ان المدارس تعلم الأولاد المسخرة والتخنث . أتريدينه (أفندياً) والأفندية يتسكعون ولا يجدون قرشاً يقتاتون به . يجب أن يكون صاحب حرفة حرة يجنى منها رزقه بعرق يديه وجبينه ، ولا تغترى بالأفندية ذوى المظاهر الخلابة الكاذبة .

ولم يشأ أن يعلمه بيع الصحف فهي ليست فى نظره بحرفة ذات شأن ، واستصوب أن يكون مصطفى (سمكرى أفرنجى) كعمه الذى يربح الكثير من حرفته . ولكن الولد لم يطق قسوة الحرفة ولا قسوة المعلم فأخذه معه كارهاً .

والتفت الوالد إلى الصبي الذي سار إلى جانبه فى نشاط كأنه احس بقوة يستمدها من يد أبيه كما رأى فى امساك أبيه

بمعصمه ترضية له وعطفاً كان يفتقده من وقت طويل . وقال مبتسماً وهو يرغب فى الترفيه عن ابنه وإظهار عطفه عليه :

ـ " انت جعت يا مصطفى ؟ "

سر الصبى أن يعني أبوه بأمره، وأن يلمس البسمة على فمه فهو لابد قد رضى عنه؛ فلمعت عيناه وشعر بالجوع الذى كان يلوى احشاءه قد زال فقال منكراً :

ـ " لا يابويا أنا ماجعتش . إحنا مش كلنا سوا الضهر . "

ـ " أيوه . لكن أنا نسيت أجيب لك تتعشى . "

فقال الصبى ـ " معلش يابويا دلوقت نا كل سوا فى البيت " وقطعا بقية الطريق صامتين .

بلغا الحارة ومرا بالمعلم (خميس) بائع الفلافل وهو يتأهب لغلق دكانه فألقى عليه الوالد تحية المساء، ثم عن له أن يشترى منه بقرش فقد لا يجد فى البيت عشاء يرضيه . فناول البائع القرش وحمل الصبى (قرطاس) الفلافل ودخلا البيت .

قرع الأب باب الغرفة التي تقع الى يمينه . وكان من حظ (نجية) انها لم تك مستغرقة فى النوم فقد أيقظتها الطفلة الصغيرة منذ برهة بيكائها ، فأخرجت ثديها الكبير المتهدل فى حركة آلية ودسته فى وجه الطفلة التى تلقفت حلمته السوداء بين شفتيها وراحت تمصها فى شره وانفاسها تخرج فى شخير من التصاق فمها بالثدى . سمعت الطرق فقامت لفورها وهى تجذب الثدى من فم الطفلة وأسرعت فى فتح الباب . دخل الزوج وتبعه

الابن . وكان الثانى هو كل مايشغل تفكيرها طول اليوم ، فهى تعرف خلق الأب الحاد رغم طيبة قلبه ، وكانت تخشى أن لا يفلح الابن فى ارضاء أبيه فتصيبه شواظ غضبه . ولكنها رأت الابن باسماً والأب غير عابس فسكنت دقات قلبها المتلهف وقالت وهى فـــرحة :

ـ " انت تأخرت الليلة ياأبو مصطفى . ؟ " ثم انحنت على الصبي واحتضنته بذراعها وتناولت منه القرطاس ثم دفعت الباب بيدها قائلة ـ " ازاى شغلتك الجديدة يا مصطفى ؟ . "

فأجاب الأب وهو يجلس على طرف الحصير ليخلع حذاءه:

ـ " لا دا الولد ده حمار خالص . دا ما باعش حاجه النهارده "

شهقت الأم وعاودها القلق إلا أنها رأت فى لهجة الزوج شيئاً من الرقة فاطمأنت قليلا . وقال الابن وهو يحك رأسه ـ

" بس لما احفض أسامى الجرانين حانبيع كثير والله يابويا "

فأجاب الأب مبتسماً ـ " والله يا خنزير ان ما فلحت لأرجعك لمعلمك السمكرى يطلع عنيك . "

سرت الأم من ذلك الحوار الودى الذى يجرى بينهما واستوثقت من عطف الأب على ولده فراحت تنير مصباحاً من الغاز كان موضوعاً على (البوريه) ثم تناولت الشمعة التى كانت تضيء الغرفة وغادرتها الى المطبخ لتحضر العشاء . وكان البيت مكوناً من غرفتين احداهما أعدت للزائرين ، بسيطة الأثاث ليس بها سوى أريكتان من الخشب يعلوهما فرش ووسائد من

القطن فى كساء من اللون الأحمر وبجانبها ثلاثة مقاعد من الخيزران . وفى صدرها دولاب صغير بمرآة واحدة . وكانت أرض الغرفة مغطاة ببساط أحمر قد ذهب لونه وتمزق فى كثير من نواحيه . وأمام الدولاب فراش ممدود عليه طفلتان، هما محروسة وفتحية أختا مصطفى .

والغرفة الثانية تحوى السرير الذى يشغله الزوجان بينهما الطفلة الرضيعة . وأرضها يكسوها حصير كبير انتشرت فوقه أربع وسائد قد اتسخ كساؤها وتمزق وبرز منه القطن . والى جانب السرير يقوم (البوريه) ذو المرآة الصغيرة المذهبة الاطار، فوق رخامته زهريتان كبيرتان بهما زهور اصطناعية جافة وبجانبها أشياء لا عداد لها من كوز من الصفيح ، الى صينية تحوى فناجين القهوة التى لم تغسل بعد الى، موقد (السبرتو) وصحن صغير به قليل من الزيتون والجبن ، ثم رغيف قد ذهب أكثر من نصفه وأمشاط وفرشة للملابس .

جلس الزوج على احدى الوسائد وجرى مصطفى وأحضر المائدة . ووضعها أمام أبيه الذى أخذ يلتهم الفلافل بغير خبز . وجاءت الزوجة بطبق من العدس وثلاثة أرغفة وملأت الكوز ووضعته على المائدة . ونظر مصطفى إلى وعاء الطعام وما كاد يلمح العدس بصفرته الفاقعة حتى مط شفتيه وقال متبرماً :

ـ " أنا ما احبش العدس ده يا امه ، "

ـ " يوه يامصطفى ! انت كل حاجه ماتعجبكش . طيب كل فلافل من اللى جابها أبوك . "

ثم تناولت قطعتين منها ووضعتهما على رغيف أمام الصبى . أخذ الولد يلتهم طعامه بسرعة فقد مسه الجوع بنابه . وراحت الأم ترقب الزوج وهو يقتطع اللقمات الكبيرة ويدسها بأصابعه الخمسة فى العدس ويرفعها الى فمه العريض ، وعيناه لا تبرحان الوعاء . وكان ضوء المصباح ينعكس على وجهه الأسمر وتقاطيعه البارزة القوية فتحس اعجاباً به وبجسمه الذى يشغل فراغاً كبيراً من دائرة المائدة . وشعر الزوج بأنها صامتة لا تشاركهما فى الطعام فرفع بصره اليها قائلا ـ " ماتاكلى يانجية . " فأجابت وقد لمعت عيناها الكبيرتان ـ " أنا أكلت من بدرى وحياتك يا ابو مصطفى مع الأولاد . كلوا أنتم بالهنا والشفا . "

واستهوتها رائحة الفلافل اللذيذة وملأت خياشيمها فمدت يدها وأخذت واحدة منها وصارت تأكلها فى بطء . وانتهى الزوج من طعامه وتناول كوز الماء وصار يعب منه فى صوت مسموع ثم استند الى الحائط وتجشأ بصوت عريض كالخوار وقال الحمد لله .

رفعت الزوجة المائدة بين يديها وراحت الى المطبخ يتبعها الزوج والصبى ليغسلا أيديهما . عادوا الى الغرفة واشعل الزوج سيجارة وأخذ يدخنها على مهل ، وجلس مصطفى بجانب ركبة أمه يتطلع الى أبيه . وفجــأة ارتفع صوت الطفلة فتصامت الأم عساها تسكت وتنام ولكنها ظلت تبكى وتقطع السكون الذى يشمل

الغرفة . التفت الزوج الى امرأته قائلا - " ماتقومى تسكتى المزغودة دى أحسن تصحى الأولاد . "

فهبت الزوجة واقفة واتجهت نحو السرير وهى تخرج ثديها استعداداً لاسكات الطفلة . انحنت فوقها وهى لاتزال واقفة بجانب السرير ووضعت الثدى فى فم الصغيرة فسكن صوتها .

ورأى الوالد رأس الصبي تميل فوق صدره فأمره بالذهاب الى فراشه فقام مصطفى ودخل الغرفة الثانية وهو فى ثيابه التي لم تتغير ونام بجانب شقيقتيه على الفراش الممدود .

ولمح الزوجة وهى لاتزال حانية على الطفلة ترضعها فبدا الامتعاض على وجهه كأنه يستكثر منها ان تعنى بتلك الطفلة فهى لاتستحق فى نظره أية عناية لأنها انثى . ماالذى سيجنيه منها اذا كبرت ؟ اما كان يجدر بنجية أن تأتيه بصبي آخر فيكون لديه بنتان وصبيان . ما الذى يحدث لو مات مصطفى الواحد وهو قد مات له أيضاً طفل قبله . ارتعب لذلك الخاطر وعجب ان يطوف به مثل هذا الهاتف المزعج . فاستعاذ بالله من الشيطان . وشعر الآن بعظم المكانة التي يشغلها مصطفى من فؤاده . رمى بالسيجارة وقام يستعد للنوم . ولكنه شعر بقوة تجذبه نحو الغرفة الثانية فدخلها ، وأبصر على الضوء الذى يسكبه المصباح على الغرفة مصطفى نائماً بجانب شقيقتيه . وقف برهة ينظر اليه فى اعجاب وسرور ثم انحنى على الفراش وأصلح وضع الغطاء فوق الصبى وعاد الى سريره واستسلم النوم .

* * *

وكرت الأيام وبدأ المعلم سيد يفخر بابنه ونشاطه فى ترويج الصحف حتى أصبح يفضل الكثيرين من الأولاد الذين طال عهدهم بتلك المهنة. وكان الصبي حاد الذكاء واسع الحيلة حبته الطبيعة بوجه صبوح ومنطق ساذج يؤثر فى كل من يتقدم اليه بصحفه. وتمكن من الاستئثار ببعض المحلات والمكاتب التجارية يقدم اليها ماتطلبه من الصحف فى مواقيت منتظمة. واذا قرب موعد ظهور الجرائد الفتيه يدخل المقاهى التى تقع فى ميدان المنشية ويتقدم الى الجالسين ويستعلم من كل منهم عن الجريدة التى يرغب فى اقتنائها ويؤكد له فى لهجة ساذجة حلوة بأنه سيأتيه بجريدته مسرعاً عقب ظهورها. بل هو يفتن فى ربط الزبائن بأكثر من ذلك، فيقدم الى البعض منهم صحفاً مصورة يتسلى بتصفحها ريثما تظهر الجريدة ويأتيه بها. ولا يكاد يتسلم من أبيه نصيبه حتى يندفع به فى المقاهى كالسهم تاركا لكل طالب صحيفته التى وعده بها. وهو لا يتناول منهم القروش عند التوزيع فهو يرى فى ذلك مضيعة لوقت يجب ان يستثمره فى ترويج صحفه. فاذا أتم البيع عاد يمر بهم من جديد ويأخذ منهم نقوده.

وحذق مصطفى مهنته ولم تعد تخفى عليه خافية من أسرارها وأساليبها ولم يعد يخشى الترام ان يصعده أو يهبط منه وهو فى أقصى سرعته.

ومر عام والوالد يزداد حباً لابنه وتقديراً لهمته وصار مصطفى يبدو أكثر نظافة وأتم هنداماً عن ذى قبل. وأصبحت

لديه قفاطين عديدة زاهيـة الألوان . وألبسه أبوه حذاء زيادة فى اظهـار عطفه عليه . وكانت الأم لا تقـل عن زوجها شغفاً بذلك الابن؛ وآمنت بقوله انالأولاد يفضلون البنات وهم زهرة البيت وعدة المستقبل . كم كرر على مسمعها قوله ان ظفر مصطفى برقاب كل بناتهـا . ماذا يحدث لهن جميعاً اذا ما اختطفه الموت ولم يـكن له ولد كمصطفى يعولهن ؟ أكانت تطرق البيوت لتعمل كخادم او ظئر لدى الناس ؟ ولـكنها كانت تقاطعه فى اشمئزاز قائلة ـ " ياشيخ تف من فمك ربنا يطوّل عمرك وتربى أولادك . "

* * *

وكان الوقت ظهراً .

ومصطفى كالعصفور يتنقل فى الشوارع ويقفز من ترام إلى آخر . وناداه أحد المـارة فجرى نحوه وهو يعبر الشارع فاذا بسيارة كـبيرة تمرق كالريح فتصدم الصبي وتطويه تحت عجلاتها . ندت عنه صرخة واحدة ؛ وفى لحظة كان ذلك الجسم الممتلىء نشاطاً وحياة جثة هامدة مهشمة . تـكاثرت الناس حول القتيل والـكل آسف متوجع ؛ وكان أكثرهم جزعاً رفاقه من الصبية الذين شق عليهم أن يروه مضرجاً فى دمائه والصحف منتشرة حوله وقد تخضبت بدمه المتفجر .

وحمل إلى المستشفى وراح بعض الصبيـة ينقل الخبر إلى أبيه . تلقى الرجل الخبر وهو كالمأخوذ ، وظل فاغر الفم جاحظ العينين يحدق فى الفضاء ووجهه يشحب ويغيض منه الدم . ثم قفز عن مقعـــده وصرخ صرخة داوية وأخذ يلطم خديه ويجذب

شعره كالمجنون .

أيموت مصطفى تلك الميتة السريعة الشنعاء ؟ مصطفى الذى يرى فيه كل أمله بل حياته يموت ولا يعود يراه ! ؟ ان عقله سيذهب بلا شك . وطغى الحزن على الرجل فأفقده وعيه وسقط بين أيدى الناس .

* * *

كانت فاجعة أليمة قصمت ظهر الرجل كما أطارت صواب الأم . ظلا ردحاً طويلا لا يهنأ لهما عيش ولا يلذ لهما طعام . وكان أشد ما يدمى قلبيهما أن تظل أختاه الصغيرتان تذكرانه فى كل حين وتتساءلان أين ذهب مصطفى ومتى يعود . هجر الرجل عمله وأناط به فرد من أعوانه، فهو لا يطيق رؤية الصغار يحيطون به ليأخذوا صحفهم منه ولا يرى مصطفى بينهم ؛ مصطفى الذى كان يدخره للمستقبل يوم يقعده الكبر فيعوله، أو يوم يغتاله الموت فيرعى أمه وأخواته الضعاف ؛ يموت قبله ويظل هو يذكره فى كل لحظة بقلب واله ونفس محزونة .

وأوشكت نجية أن تضع مولوداً . فكانت تضرع إلى الله بقلب راجف وعين دامعة أن يهبها غلاماً ، وتبتهل إلى الأولياء وتعدهم بالنذور الكبيرة ليحققوا أمنيتها ما دام القدر أبى الا أن تحمل قبل تلك المحنة التى أصابتها بفقد ولدها . وكان الزوج أشد منها سخطاً على ذلك الحمل فما الثمرة من الأولاد إذا كان الموت يختطفهم بعد أن يشبوا وتعلق بهم النفوس وتعقد عليهم الآمال .

وجاء المولود ذكراً . فسكنت نفس الأم وآمنت بسر الأولياء الذين استجارت بهم . ودخل الزوج مخدعها فمدت يدها بالمولود المدثر فى اللفافات فتناوله بين ذراعيه . تطلع فى وجهه فاذا به صورة مصغرة لمصطفى الراحل بوجهه وعينيه . اغرورقت عينا الرجل وحمد الله فى سره فقد شاء أن لا يحرمه صورة مصطفى إلى الأبد فأتى الجديد يبعثها ويحييها .

وقالت الزوجة بصوت خافت حزين :

ـ " عايزه اسميه مصطفى . "

فهز رأسه مؤمناً على قولها وناولها الطفل ......

* * *

وفى الصباح عاد إلى عمله بنفس هادئة . وأنساه الجديد القديم .



بنت البنك

ـ « ما شاء الله . إنك لفاتنة فى هذا الثوب ! »

ـ « ها . ها . أحقاً ما تقول ؟ »

ـ « طبعاً . لست أتملقك . »

ـ « إذن قم يازوجي العزيز واوثق عرى الثوب من الخلف »

وكانت (بهيجة) تختال فى ثوب جديد من (الكريب جورجت) الوردى اللون ، قد حسر عن صدرها البلورى وذراعيها العاجيتين وانعكس لونه على وجهها الفتان فزاده جمالا وروعة . وكانت تتقدم وتتراجع ، وتميل أمام خزانة الثياب ذات المرايا المتعددة لترى كيف تبدو فى ذلك الثوب ؛ ثم تمسك بجدائل شعرها الذهبي المقصوص التى تهوى الى كتفيها فى تكسر وتماوج ؛ وتأخذ فى صقلها بيدها وفمها يفتر عن ابتسامة الاعجاب والرضى . وكان (رشيد) جالساً على إحدى الأرائك وخلف رأسه وسادة حريرية ناعمة وهو يتثاءب ؛ وقد استيقظ من نومه منذ برهة وراح ينظر إلى صورة زوجته المنعكسة أمامه فى المرآة . ودعته فسار نحوها وأوثق لها أزرار الثوب ثم طوقها بذراعيه فى رفق وطبع قبلة على جيدها الناصع .

ـ ولكنك لم تبد رأيك فى هذا الثوب ؟

ـ إنه لا يحتاج إلى تقريظ . إن ذوقك فى اختيار الألوان لمـــدهش .

ـ وهذا الحذاء ألا تراه بديعاً ؟

ـ أوه جداً . ألم أقل أنك فنانة سليمة الذوق .

ـ لا تنس أن ثمنه جنيه ونصف .

فرفت اهدابه وشعر بما تعنيه زوجته بالتحدث عما تنفقه على ملبسها وزينتها ، وما تبذل فى هذا السبيل من مالها الخاص . ولكنه تظاهر بعدم ادراك غرضها وقال :

ـ انى لأوثر إذن البقاء معك الليلة ولا حاجة لذهابى إلى النادى كى استمتع بك وأنت فى هذه الحلة الجديدة .

فقهقهت بهيجة وهي تمسك بأصبع قرمزى تصبغ به شفتيها الرقيقتين ثم قالت :

ـ لا يا عزيزى لست لك هذه الليلة . ولكن كم تبلغ الساعة الآن ؟

فازدرد ريقه وقال فى لهجة لا تخلو من عجب :

ـ لقد بلغت الساعة السابعة مساء ولكن ...

فقاطعته الزوجة قائلة :

ـ لقد ابطأت هدى هانم وفات الموعد الذى انتظرها فيه وعلىّ أن أذهب لاصطحبها إلى ...

ـ غريب أمركما !! ما هذه الزيارة التي تنظمانها فى مثل

هذا الوقت ؟

ـ هذه ليست زيارة يا عزيزى . نحن ذاهبات إلى مسرح الأزبكية .

ـ مسرح الأزبكية !! ألم نكن معاً فى (رمسيس) هذا الأسبوع ؟ إن هذا لكثير .

فتحولت عن المرآة وقالت ـ " أيضيرك ذهابى ؟ لقـــد أستاجرت مقصورة دعوت إليها البعض من صاحباتى . "

ـ يضيرنى !! يضيرنى أنني زوجك ولا أعلم بتصرفاتك إلا بعد أن تضعيها فى موضع التنفيذ .

فزمت شفتيها فى شبه استخفاف ثم قالت :

ـ أظننى لم احملك شيئاً من هذه النفقات ؟

فبرقت عيناه وصاح فى حدة :

هذا كل ما يؤلمنى ويكوى مشاعرى . أتظنين أنه طالما أنت ذات ثروة فلكأن تفعلى ماتشائين ؟ وأن ليس لهذا الرجل الذى تعاشرينه أن يستوضحك أمراً أو يقف لك فى سبيل ؟

ـ أنى أعتقد أن ما أتيته وكل ما أفعله لا غبار عليه طالما انى لا أرهق زوجي بنفقاتى . وليس له أن يلومني ما دمت حريصة على رباط الزوجية .

ـ ألا ترين فى هذه الحرية التى تبيحينها لنفسك مايتعارض مع حرصك على عهود الزوجية ؟ أيعد الرجل زوجا وهو مسلوب السلطة لايقام لرأيه وزن ولايعنى بالمحافظة على شعوره

ومنزلته ؟ ثق لولا أن لك ذلك المال . نعم المال لما كنت على هذا التحمس للحرية والاعتزاز بالنفس .

فدارت على عقبيها واستندت إلى خزانة الثياب ويداها الى خلفها ثم قالت وهى تتكلف الهدوء :

ـ ان هذا كان سلوكى قبل أن أتأهل بك ، ولا أحسب أن الزواج سيفقدنى شيئاً من الحرية التى كنت أنعم بها . أتريدنى حبيسة ؟ أتستكثر على ارتياد المسارح . أترغب أن أضع مئزر الخادم واهبط إلى المطبخ لأنظف الأطباق والأوانى ؟ هذه حياة لم أتذوقها يا صديقى من قبل .

فضرب ركبته بكفه وقال وهو يزفر كمن نفد صبره :

ـ ما هذا الذى ابتغيه . لست أضن عليك بما هو حق لكل زوجة بل لكل امرأة فى الوجود من حرية يستسغيها العقل . أنى لا أستبيح لنفسى متعة إلا وكان لك فيها نصيب . أرأيتني أحجمت عن اصطحابك إلى مسرح أو ملهى ؟ ولكننى لا أود أن يصرفك ذلك عن العناية ببيتك ، ولا تدعوك الحرية الى اغفال شئون زوجك وانكار ماله من حقوق .

فعقدت ساعديها فوق صدرها وقالت وهى تبتسم :

ـ وما هى حقوق الزوج يا ترى ؟

فحدق فيها طويلا ثم هب من مقعده وسار يقطع الغرفة ذهاباً وجيئة ويداه فى جيبى بيجامته ثم قال :

ـ يؤلمنى أنك لا تعلمينها الى الآن أو بالأحرى تتجاهلينها .

ثم وقف وصوب اليها نظراته التى أشعلها الغضب وصاح :

ـ كم من مرة عاد الزوج الذى أمامك من عمله فالفاك غائبة عن البيت ؟ وكم استيقظ فى مثل هذا الوقت فاذا بك قد تناسيته تماماً وخرجت فى زيارة دون أن تعنى ولو باستئذانه ؟ وبعد ذلك تسألينى عن حقوق الزوج ؟

ثم اقترب منها وأردف فى لهجة الساخر :

ـ " صدقينى ان لم تكونى ابنة مصطفى بك وأنا . أنا الفقير فى رأيك ما كنتِ كما أنت الآن . "

فاحمر وجهها وبرقت عيناها وصاحت به : " رشيد . حذارِ "

ـ " ومم أحاذر ؟ لقد طفح الكيل ولم تعد النفس تَحمل المـــزيد . "

وظل يذرع الغرفة بخطواته ويهز رأسه فى استمرار وهى تتبعه بنظراتها وتعض شفتها قهراً وغيظاً . وساد الغرفة سكون طويل كانت تقطعه الساعة بدقاتها البطيئة المتزنة . فانتبهت بهيجة ونظرت الى الساعة فى قلق ثم قالت :

ـ ولكنك لا ترمى الى احراجي مع صاحباتى وتمنعنى عن الذهاب إليهن الليـــلة ؟

ـ " احسبنى غير راض عن ذلك ولا أسمح به "

ـ " رشيد . ! ولكن هذه اهانة لا احتملها . "

ـ " فليكن ما تشائين . "

فصاحت وهى تنتفض : « إذن سأذهب . وسأذهب »

ثم انفجرت بالبكاء وارتمت على مقعدوهي تنتحب . وغادر رشيد الغرفة بعد أن جذب بابها وراءه فى شدة وعنف وهو يقول :

ـ وأنا كزوج يقدر كرامته سأدري ماذا أفعل .

* * *

جلس رشيد فى البهو الكبير يدخن اللفافة بعد اللفافة وهو فى أقصى حدود الغضب . فقد خرجت كما أرادت وسمع صوتهاوهى تخاطب الخادم وتوصيه باليقظة والانتباه لعودتها . انها لهزيمة كبرى ؛ كيف يطيق أن يكون زوجاً بالاسم ، زوجاً لا حول له ولا سلطان . لقد تزوج منها منذ ثلاثة شهور وفى كل يوم يرى من سلوكها ما يشعره بكبريائها واعتزازها بما لها وجاهها ؛ فهى لا تعنى بشئونه بل تدع أمره للخدم . تبتاع ما تشاء وتختار ما تشتهى بنفسها دون أن تطلب منه شيئاً كأنه يعجز عن شرائه بماله ؛ ثم الزيارات التى كثرت وصارت تحرمه من وجودها إلى جانبه فى الساعات التى يسكن فيها كل زوج الى زوجته . كان يظن ان الزواج ، أى تلك الرابطة القوية التى تؤلف بين القلوب كافية لأن تجرد كلا الزوجين مما لهما من ألقاب ونعوت ، وتقضى على ما بينهما من فوارق وتجعل منهما شخصين متحابين ينعمان بحاضرهما ويؤملان فى المستقبل . ولكن هاهى أماله تتحطم على صخرة التقاليد التى تسترق لها بعض النفوس وترى فيها تراثاً بل مادة لحفظ كيانها . أ اذا كان ابن مثر كبير أو صاحب جاه أكانت تنظر إليه زوجته بهذا المنظار الأسود ؟ أكانت تترفع وتشمخ بأنفها وتتخطى إرادته

كما فعلت اليوم . أهذا كله لانه دونهـا مالاً ؟ انه ليس بالفقير المعدم بل أن راتبـه الذى يبلغ العشرين من الجنيهـات شهرياً كفيل بأن يهيأ لهما كل أسباب العيش الرضى والهناء المقيم لو قللت من اسرافها وغلوها فى الانفاق ؛ وما كانت هنـاك حاجة الى مالها الذى تنفقه على نفسها وتتجنى به عليه .

انه ليذكر أنه كان أبعد الناس تفـكيراً فى الزواج المـادى كما يقولون ، أو الزواج من عائلة ترى فى المال الذى تصيبه فى حياتهـا شرفا يزرى بـكرم المحتد وعلو النسب ، ويذكر كيف سعوا اليه بهذه الزوجة أكثر مما سعى هو إليها . فالزوج فى هذه الأيام اندر من الـكبريت الأحمر . وزينوا له الأمر وكيف سيكون معززاً موفور الـكرامة بينهم ، والفتاة يتيمة ليست لهـا إلا أم تحبها ولا تقوى على الابتعاد عنها وسيكون زوج ابنتها فى منزلة الابن لديها . وتم الأمر وترك أهـله ليستقبـل تلك الحياة الجديدة فى منزل الزوجة وأمها . وكانت أيام معدودات شعر بعدها بأنه كان مخدوعاً وأن حريته فى ذلك البيت ليست كما يشتهي والأمور تجرى على غير ما يحب .

وألقى رشيد لفافة التبغ ونادى : « عثمان : عثمان »

وجاء الخـادم يلبى نداء سيده ووقف بباب الغـرفة فألفاه يسير فى انحاء البهو ويداه معقودتان خلفه . أدرك السر فى انزعاجه وتقطب أساريره فقـد أحس بالثورة التي نشبت بين الزوجين منذ قليل .

ـ « ستك الكبيرة راحت فين ؟ »

ـ " خرجت ياسيدى الساعة خمسة وقالت حاترجع الساعة ثمانية . والست الصغيرة راحت ...

فقاطعه قائلا « أنا عارف . روح حضر الشنط حالا . »

وانصرف الخادم وعمد رشيد إلى خزانة الثياب وأخذ يخرج منها ثيابه الخاصة ويلقى بها على مقاعد الغرفة وعلى فمه ابتسامة مرة . أنه يخرج الآن من ذلك البيت . من بيتها هى كما يخرج الخادم الذى لا يملك فى المنزل أكثر من ثيابه . ياللسخرية !! ولكن ليس فى مكنته أن يفعل غير هذا ، أن البيت الذى لا يحس فيه بأنه الزوج القادر الفعال لا يمكن أن يبقى فيه لحظة واحدة .

* * *

ـ " أهلا رشيد بك ـ أهكذا يفعل كل العرسان ويحتجبون عن أصدقائهم ؟؟ "

وقام حسن يصافح صديقه بشوق وقد أضاء وجهه بشراً بلقائه بعد انقطاعه عن التردد على (جروبى) عقب زواجه .

وجلس الصديقان وقال حسن وهو يبتسم :

ـ « أرى أشهر العسل كانت معك طويلة ؟ »

فتنهد رشيد وقال فى سخرية :

ـ " جداً ياصديقى . والآن قل لى ماهى الملاهى التى جدت فى المدينة والتى يمكن أن أقتل فيها بعض الوقت ؟ "

ـ "ماذا تعنى بقولك ؟فانفرجت شفتاه عن شبه ابتسامة وقال

ـ أعني أنني جئت لأستأنف حياة العزوبة من جديد .

ـ رشيد !! وحدق حسن فى صاحبه وهو لا يكاد يفقه معنى لهذه العبارة ولا سيباً لتلك السويداء التى تغمر وجه صديقه . ومد رشيد يده وتناول علبة السجاير التى وضعها حسن على المائدة وأخرج منها لفافة أشعلها فى بطء ، وراح ينفث دخانها فى الهواء فى زفرات طويلة ويتبعه بنظره وهو يتلاشى فى الهواء ثم التفت إليه قائلا :

ـ ألم أقل لك ياصديقى أن الزواج (كاليانصيب) الخاسرون فيه أكثر عدداً من الرابحين .

ـ ولكننى تزوجت قبلك بأعوام وأمكننى أن أكون سعيداً .

ـ لقد كنت ياصديقى من الفريق الرابح بلا شك . ولكن ماذنبى اذا كانت صفقتى قد كتب لها الخسران ؟

ـ دع عنك هذه الفلسفة الجوفاء ولا تجعلنى أحشرك فى زمرة الأزواج الذين اعتادوا حياة المرح وعدم المسئولية فى عزوبتهم فاذا حملوا عبء الزوجية ضجوا بالشكوى ونادوا بالويل والثبور لأتفه الأسباب .

فأجاب رشيد وقد ارتسم الألم على قسمات وجهه :

ـ ثق ياصديقى أنني ممن يقدرون الزوجية حق قدرها ولا يتبرمون بها كما تقول وكنت على استعداد لأن أروض نفسى واحملها الكثير من العنت فى سبيل الابقاء على تلك الرابطة ...

فقاطعه حسن قائلا « ولكننى أراك تشكو فهل يستقيم ذلك

مع ماتقول ؟ »
فهز رشيد رأسه وقال وهو يزفـــر :
ـ « لقد كان الأمر فوق ما كنت أتصور »
ـ « اسمع ياصاحبي انسياسة البيت بل سياسة الزوجة ليست بالشيء الهين اليسير بل هى أشد تعقيداً من سياسة دولة بأسرها. والآن قل لى ماذا يـكربك ؟ »
أخذ رشيد ينفض رماد اللفافة بسبابته و تناول فنجان القهوة ورشف منه بضع قطرات ثم وضعه أمامه فى حذر وقال :
ـ « يؤلمنى أنني مفقود السلطـان فى بيتى أو قل ليس لى فيه رأى يعتد به »
ـ ها . ها . أهذا كل مايـكربك و يقض مضجعك ؟ الا ليت شكايات الأزواج فى مثل شكايتك »
ثم أمسك بيد صاحبه وهو لا يزال يقهقـــه بصوته القوى ورشيد يحملق فيه وهو مشدوه . أيسخر منه صديقه لأن شكواه تافهة حقاً أم هو يبغى أن يهون عليه الخطب ؟
وأمسك حسن عن الضحك ثم قال :
ـ « انكما طفلان كبيران ينشدان السلطة. أنت تريد أن تكون الحاكم بأمرك، وهى تبغى أن تصبح (دكتاتورة) فى مملكتها ورئيسان يارشيد فى سفينة واحدة يغرقانها كما يقولون . ان الثورات التى تنشب بينكما كالزوبعة فى الفنجان ليس أهون من اخمادها . ان قبلة منك لها أو ذراع منها يلتف حول عنقك يكفى لأن ينسيكما

كل ماوقع . ولكن للأسف ليس بينكما من يتنزل عن كبريائه ويتقدم لارضاء صاحبه .

صمت رشيد وراح يزن قول صديقه فادرك مابه من صواب . ولكنه ذكر انه كان دائماً معها فى موقف المقهور المهضوم الحق فثارت حميته وقال :

ـ ولكن ياصديقى هناك كرامة تهان فلا تغسلها قبلةو لاضمة .

ـ أى كرامة هذه التى تتحدث عنها ؟ ان الزوجية تقضى على كل هذه الاعتبارات . ألم تصبحا شخصاً واحـــداً وأن تعدد منكما الجسد ؟ وهل كان للمرء أن يحاسب نفسه على مايوجهه لذاته من لوم وتأنيب ؟ رشيد : أنني أعهدك رزينا واسع الحيلة فكن عند حسن ظنى بك ولا تدع هذه الاهواء تعصف بك .

فتنهد رشيد وأشعل لفافة ثانية وشعر بأن هذه العبارات قد رفهت عن نفسه المحزونة وأزاحت عن كاهله عبئاً ثقيلا .

ـ ومتى كان آخر شقاق بينكما ؟

ـ فأجاب رشيد فى صوت خافت : « منذ اسبوعين »

ـ وهلا زلتما متخاصمين ؟

ـ لست معها الآن .

ـ لست معها !! اذن أين تقيم ؟

ـ عند أهلى . فقد عدت الى صدر أمى الحنون .

زم حسن شفتيه فى استنكار وقال :

ـ « ألهذا الحد يفسد بينكما الأمر . هـذه ليست أم حنون

تلك التى تستبقيك الى جانبها وتقصيك عن زوجتك. قد كانت أمك فيما مضى وانتهت مهمتها. أما أمك الآن ــ وشقيقتك وحبيبتك فهى زوجتك. أتسمعنى ؟ »

« هاقد أمضيت اسبوعين فى بيتــك القــديم فهل أحسست فيه بالسعادة وهل تطمئن الى البقاء فيه طويلاً ؟ »

أسند رشيد رأسه على راحته ووضع ذراعه على حافة المائدة وأخذت الأفكار تتزاحم فى رأسه. بدأ يذكر تلك الأيام التى قضاها بعيداً عن زوجته لا يستقر له فيهـا قرار. كان ينحي على نفسه باللائمة حيناً لأنه استسلم الى غضبه ولم يفلح فى اقنـاعها بالحسنى. وحيناً يرى انهـا هى المخطئة الملومة، ولم تك هنـاك من وسيلة لتلافى الشر الذى كان فى الامكان وقوعه أفضل من تركه البيت. ليالى طويلة قضاها فى سهد وهجوع واحلام مضطربة. كانت صورتها لا تبرح مخيلته فى يقظته ومنامه، شعر الآن انه يحبها. يحب كل مافيهـــا. يحب جسمها البض الرشيق وعينيها الرماديتين وروحها الحلو. آه لو لم تـكن عنيدة شامخة الأنف.

وشعر حسن بمـا يدور بخلد صاحبه وهو يتولى مراجعة نفسه، فتركه يحاسبها فى هدوء وهو جد مسرور لأنه أفلح فى تفريج همه وأحزانه. ورفع رشيد عينيه والتقت نظراتهما فابتسم كل منهما وبان فى وجهه مايخالج نفسه من مشاعر وآمال.

* * *

وعكفت بهيجة على قتل فراغها تارة بالعزف على البيـانو ومطالعة الصحف، وحيناً بالخروج لزيارة صديقاتها الـكثيرات.

فليغضب الزوج وليترك البيت . أيحسبها ستلحق به لتستعطفه وتقبل رأسه . هى لاترى نفسها مذنبة فى شيء ألأنها تكثر من الخروج وتحب المسارح يغضب ويثور وينفض يديه من شأنها ؟ انها فى بسطة من المال الذى يقيها الحاجة وشر العوز . وهل الزواج ضرورة لاندحة عنها ؟ هى لاترى ذلك . فقد كانت عذراء قبل أن تتأهل به وكانت سعيدة ، وهاهي تعاود سيرتها الأولى ولا تحسب ان شيئاً ينقصها الآن . ومرت الأيام وكلما اعتراها السأم والتبرم بوقتها التمست متعتها فى الرياضة وغشيان دور السينما . ولكن الأم لم ترضها هذه الحال ، فأخذت تكثر من الحديث عن رشيد وعن اصراره على الجفاء والقطيعة ورأت أن يتوسط فى الأمر بعض ذوى قرباها ليعمل على التوفيق بينهما أو تذهب هى اليه بنفسها فهو بعد كابنها وقد كان لها مبجلا وموقراً . ولكن الأبنة كانت تتظاهر بعدم الاحتفال بشأنه وترى فى تلك السعاية هزيمة لاترضاها لنفسها فهو المخطىء ، وهو الذى يجب عليه أن يعتذر اليها ويسترضيها . والأم راجحة العقل تعلم أخلاق الفتيات وكيف يغلبهن الحياء والكبرياء فيجرى على ألسنتهن ماليس فى قرارة نفوسهن ؛ وان ابنتها العنيدة المدللة تتحرق الى زوجها وما البشر الذى تتكلفه الا قناعاً كاذباً يخفي نفساً مكتئبة ملتاعة .

وفى ليلة كانتا تلعبان (بالورق) وقد مضى على الحادث ما ينيف على الاسبوعين . والأم قلقة لاتود أن تمتد القطيعة ويطول الجفاء . والأبنة على عنادها . أخذت تشيد أمامها بفضائله

وتمجد خصاله الحميدة . ما الذى أتاه معها مما تفعله الأزواج مع نسائهم ؟ الأنه أراد أن يكون زوجاً مطاعاً . أليس هو ككل الأزواج بل قد يكون أفضل من الكثيرين منهم ؟ ان الرجل لا يصبر على الضيم ومقاليد المرأة فى يده . فى مكنته ان يقطع ما بينه وبينها من صلة بكلمة تخرج من فمه ، أو يتعسف معها بحقوقه الشرعية فيذيقها الأمرين فلا هى بالزوجة ولا هى بالطليقة . بينا هو يلهو ويمرح ويتزوج من ثانية وثالثة . أخذت هذه العبارات تعمل فى نفس الأبنة وتنحو بتفكيرها ناحية جديدة . بدأت تشعر بأنها كانت على شيء من الترفع والاستبداد بالرأى . وكانت تعطى لنفسها من السيطرة ما قضت بها على شخصية زوجها . ألا تحدثه نفسه كما تقول أمها بالانفصال عنها . هو لا يفقد بذلك شيئاً من ذاتيته ولا من سمعته . أما هى فمن يعلم ان كانت توفق الى الزواج من غـــيره أم لا توفق . ومن سيكون ذلك الزوج الجديد الذى ستتقلب فى أحضانه . ياللشناعة ! انها لتؤثر ألف مرة أن تموت من أن ينتهى بها الأمر الى تلك الخاتمة المشينة . كانت تحسب أن الزواج لن يقيدها بشىء ما وستغدو وتروح كيفما تشاء ، ولكن هاهو قد تركها واستعادت حريتها كاملة فلم هى أقل سعادة وغبطة مما كانت معه ؟ ولمَ أصبحت الملاهى غير مبهجة ولا مفرحة : وزهدتا اللعب وقد فشلت بهيجة مرتين فى التغلب على أمها وأزف موعد الرقاد فانصرفت الأم الى غرفتها .

وكان الليل ساكناً والهواء راكداً حاراً كأنه ينبعث من

أتون . ووقفت بهيجة فى النافذة المفتوحة وذراعاها ممدودتان الى طرفى النافذة تلتمس نسمة من هواء ترفه عن صدرها المختنق وتندى جبينها الملتهب . وكانت فى غلالة رقيقة فضفاضة انحل رباطها عن خصرها فانفرجت عن جسمها اللدن الذى توارى فى قميص أبيض رخص يكاد يلتصق بجسدها الذى سرت فيه قطرات العرق ، وصدرها العارى يعلو ويهبط مع أنفاسها الحارة المتلاحقة . تحولت عن النافذة فى تراخ وسارت الى مقعد (البيانو) القريب منها فجلست عليه . وضعت مرفقيها على حافة (البيانو) اللامعة وأمسكت رأسها بكفيها ، وأناملها تغوص فى شعرها الغزير . رفعت عينيها فى بطء فوقع بصرها على اطار كبير مذهب الحواشي يتوسط الحائط . ارتعشت وهى تتفرس فى صورتهما وهما فى ثياب العرس . هي فى ثوبها الأبيض الناصع الطويل الأذيال ، التى تجمعت تحت قدميها ، وهو الى يسارها بقامته الطويلة . وكلاهما باسم مسرور . هي تذكر كيف أصر على أن تؤخذ لهما هذه الصورة فى صبيحة يوم زفافهما لتكون ذكرى خالدة لذلك اليوم الذى امتزجا فيه روحاً وجسداً .

لم تقو على التطلع اليها وأحست بدمعة تطفر من عينيها فاغضت من بصرها وزفرت فى أنة خافتة .

وعلى قمة البيانو بين الدمى المتعددة ، وأوانى الزهر البللورية الدقيقة ، رأت صورته الثانية فى اطارها الكروى الصغير بوجهه الواضح القسمات وعينيه الحادتين وشعره المنبسط الى الوراء

فى لمعان ونعومة . اختلج جسمها وامتدت يدها الراعشة لتمسك بطيفه الذى تمثل كاملاً أمامها ، فارتطمت يدها بدمية منتصبة هوت الى الأرض فأفاقت من غفوتها راجفة . لم تقو على الحياة بين هاته الذكريات فاندفعت الى غرفة النوم وأطاحت بالغلالة التى تكسو جسدها المضطرب وترامت على فراشها ، فكأنها ترقد على أشواك قاسية الملمس . أحست بوحشة مقبضة وفراغ رهيب ينبعث من سكون الليل وقيظه المرهق ، فأغمضت عينيها وتجمعت فى وسط الفراش وتشبثت يداها بالوسادة التى كان يرقد عليها تلتمس منها ايناساً وحمى . ذكرت ليالى كانت تندس فيها الى جانبه وتلقى فى صدره كل اطمئنان ؛ فخرجت من صدرها انة طويلة وصاحت فى نفسها : ألا تعود تلك الأيام .؟ هى تقسم الآن انها ستكون خاضعة مطواعاً .

* * *

لبى رشيد دعوة صديقه حسن وذهبا سويا لمشاهدة احدى الروايات على مسرح الازبكية . وكان الصديق قد صحب زوجته فجلس الثلاثة فى مقصورة واحدة . وكان ذهابهم قبل بدء التمثيل بوقت غير قصير ، فأخذوا يتحدثون حيناً وحيناً يقلبون أبصارهم فى النظارة الذين امتلأت بهم الصالة والمقاصير المتعددة . وجلست الزوجة بين الصديقين وهى من الجيل الجديد الذى يتعشق الحرية وينزع الى السفور التام ، سفور الفكر وسفور الروح . وكان الزوج من رأيها لا يرى غضاضة فى أن يصحب زوجته الى المجتمعات العامة ولا أن يجلس معها صديق يتحدثان

اليه . ورأى رشيد حركة فى المقصورة التى فى الجانب المقابل له فحدق فيها فوجدبها ثلاث سيدات يتهامسن ويصوبن اليه نظراتهن . كم كانت دهشته عظيمة حينما أبصر زوجته بينهن ! . شعر بقلبه يدق بشدة وسر فى نفسه لأنه رآها بعد تلك الفرقـــة الطويلة. ولـكـنه اصطنع عدم الاحتفـال بهن واستدار فى جلسته حتى لا يـكون هدفاً لأنظارهن . وكانت بهيجـة لا تنفك تحدق فيه بقلب خفاق وأنفاس مضطربة . من هذه التى يجلس معها ويحادثها ويوليهـا كل سمعه وبصره ؟ أهى خطيبة جديدة أم خليلة ؟ وما كاد يرد هذا الخاطر الى رأسها حتى ارتاعت وانتفض جسدها . ولـكنها ترى فى مظهر السيدة وما يبديه رشيد نحوها من التجلة والاحترام ما يستبعد معه أن تـكون خليلة لأحدهما وقد تـكون زوجة للآخر ، فبعث فيها هذا الرأى شيئاً من الطمأنينة ولـكن الغيرة ظلت تنهش جسمها . أيقنت انه رآها ولـكن آلمهـا أن يعرض عنها ويحـول نظراته الى جليسته يحدثهـا وهو ضاحك متهلل الوجه .

وارتفعت الستار. وبدأت الرواية وأوشكت أن تنتهى ورشيد وبهيجة لا يكادان يفقهان شيئاً مما يعرض أمامهما . كلاهما يفـكر فى صاحبه ويود لو عرف مايجول بخاطره عنه . وحرص رشيد على أن لا يقع بصره عليها فى فـترات الراحه التي تخللت فصول الرواية فشق عليها ذلك الأمر وزاد فى آلامها . وما كادت تنزل الستار حتى وقفت واستأذنت من صاحبتيها وأسرعت فى الخروج

وهى لاتدرى ماهي فاعلة . وقفت على مسافة قصيرة من باب المسرح عسى أن يراها ويقبل عليها . وأخذت الناس تتدفق الى الشارع وهي تتصفح وجوههم التي تبدو مشرقة ضاحكة بعين قلقة حائرة . وظهر رشيد ومعه صديقه يتأبط ذراع زوجته ، ولمحها بمؤخر عينه فأشفق عليها وهى على تلك الحال من الاضطراب وكاد يهرع اليها ولكنه كبت شعوره وراح يودع الزوجين وهما يصعدان الى احدى المركبات . ثم تخطى الشارع ليسير على الافريز الثانى ويرى ماسيكون من أمر زوجته . وما كاد يلتفت الى الوراء حتى رآها فى أثره . أحس بسرور كبير ولكنه لم يلق لها بالاً ليرى ماهي فاعلة . سار بخطوات قصيرة وكأنه لم يشعر بوجودها . سمع وقع أقدامها خلفه وهى تجد فى اللحاق به فأمعن فى السير وعلى شفتيه ابتسامة الظفر . ورأته يسرع فخشيت أن يغيب عن بصرها . أتناديه ؟ ياله من قاسى القلب. ألا يشعر بأنها تتعقبه فنادت بصوت خافت :

ـ اسمع . اسمع .

ولكن رشيد تصامم واستمر فى سيره : وأحست بقواها تخور فصاحت بصوت تخنقه العبرات :

ـ رشيد . رشيد . الله . . .

وقف رشيد ورآها مقبلة وهى تلهث فتظاهر بالدهشة وأقبل نحوها وأمسك بيدها قائلا :

ـ بهيجة !! ما الذى أتى بك الى هنا الآن ؟

ثارت عواطفها وبكت لكبريائها الذى تحطم أمامه فصارت تهتز كغصن تعصف به الريح . واستوقف الزوج سيارة أعانها على الصعود اليها .

رأى الموقف لايحتمل صدوداً أكثر مما فات . وذكر نصيحة صديقه فصعد وراءها وجلس بجانبهـــا . أخذت تبكى وتنشج فطوقها بذراعه ورفع ذقنهـا بيده واندفع يمسح دموعها بقبلاته الحـــارة المتعددة . نظرت اليه وقالت فى لهجة متقطعة تمتزج بالفرح والعتاب :

ـ أهكـذا تتركنى ياخسيس ؟

فابتسم وقال : " هلا زلت تحبين المسارح ؟ "

فألتفت يدها بعنقه وأسندت رأسها الى صدره وأجابت فى صوت خافت :

ـ سوف لا أذهب اليها الا معك .



الصِّراع

جلس على حافة السرير وقد ارتدى (البيجاما) التى أحضرها من منزله، وصار يطوح برجليه وينقل بصره فى تلك الغرفة الواسعة النظيفة التى احتوته تفوح منها رائحة (اليودفورم) القوية . وكان هادئاً برغم ما تحيط به من ظواهر تذكره (بالعملية) الجراحية التى ستعمل له فى الصباح . نهض من جلسته وسار نحو النافذة المفتوحة وأخذ يطل على الحديقة الكبيرة التي تملأ فناء المستشفى ويداه مغروستان فى جيبى بيجامته .

وكان شابا لم يسلخ الثلاثين من عمره ، متوسط القامة جذاب الملامح أبيض الوجه ، يشوبه اصفرار قليل . لبث وقتاً طويلا يتلهى برؤية الخدم تسير فى طرقات المستشفى وتنتقل من قسم الى قسم ، يحمل بعضها طعام المرضى الذى يقدم إليهم فى المساء . وأخذ النور يضعف فى الغرفة فترك النافذة وأشعل المصباح الكهربائى وجلس يتصفح إحدى المجلات التي كانت معه . ودخلت ممرضة شابة فى ثيابها البيضاء الناصعة ، يتبعها رجل تقدمت به السن يتحامل على السير وقد أخذت الممرضة بيده

حتى أجلسته على أحد المقاعد . ثم تقدمت من سرير الشاب وارتكزت بيديها على حاجزه وقالت وهى باسمة ـ « سوف لا تشكو الوحدة فقد أتيتك برفيق يذهب عنك الضجر »

ألقى الشاب المجلة بجانبه ونظر إليها مستطلعاً . وكانت قد أتت به منذ ساعة وتركته على عجل فلم يتبينها جيداً لانشغال باله . وكانت فتاة فى نحو الرابعة والعشرين من عمرها ، طويلة القامة ممشوقة القد ، بيضاء الوجه يشع من عينيها الخضراوين بريق خلاب . وكان ثوبها الأبيض برغم بساطته أنيقاً يكاد يتحد بجسمها فيظهر مافى تكوينه من جمال . يتوج رأسها شعر أسود فاحم مقصوص تتدلى خلاصته الخفيفة حول وجهها فتزيد فى بياضه وضوحاً وفتنة . وضع إحدى ساقيه فوق الأخرى وعقد يديه حول ركبته وقال وهو يطيل النظر فيها ولا يملك كتمان إعجابه بها :

ـ « إنى لأشكر لك هذا الصنيع وأود من صميمى أن يكون لى حظاً من عنايتك على الدوام »

ـ « سأكون طوع اشارتك فى كل وقت »

ثم أردفت ضاحكة ـ « لأنك مقيم فى دائرة نفوذى واختصاصى . »

ـ « هذا من حظى السعيد بلا ريب . ولست أعتقد أن هناك شيئاً يغرى بالاقامة بالمستشفيات ، ويخفف من وحشتها إلا ممرضاتها الحنونات وما يغدقن من رحمة عل نزلائها تنسيهم ما بهم من آلام . »

ـ « أوه . هذا تقدير كبير منك لعمل نراه واجباً علينا .
ولكن لا تنس أننا نقسو أحياناً على المرضى مكرهات فى سبيل سلامتهم ولا أدرى ان كانوا يحبوننا مع هذا أم يسخطون علينا . »

فأجاب باسماً — « ما أحسب أن قسوتكن مكروهة بل لتحملها النفوس راضية مغتبطة »

فقالت ـ « هل لى أن أسألك يا عزيزى أى (مسهل) تختاره الليلة ؟ لدينا سلفات ـ ملح انكليزى ـ زيت خروع ـ مانيزيا فأيها تفضل ؟ »

تعقد جبين الشاب بسرعة وقال وهو يجتهد فى اخفاء امتعاضه :

ـ ولكنك تباشرين قسوتك بسرعة . ألا تعلمين أنني لا أمقت شيئاً كما أمقت هذه (الشرب) »

أغرقت الفتاة فى الضحك وارتدت عن حافة السرير ثم تمالكت نفسها واقتربت منه ثانياً وقالت :

ـ « ألم أقل لك أننا قاسيات لا نرضى كل الناس . ها أنت قد تكدرت مني لأننى سأجرعك (مسهلا) فكيف تحتملنى اذا قسوت عليك عند تضميد جراحك . ؟ »

حك الشاب رأسه بيده وقال ضاحكا :

ـ « صدقيني أنى أحتمل كل ألم بصبر وجلد إلا هاتيك (الشرب) الملعونة . والآن إذا لم يكن من الموت بد كما يقول الشاعر فانى أفضل (المانيزيا) على غيرها »

استدارت الفتـاة والتفتت إلى الشيخ الذى جاءت به وقد أخذ فى استبدال ثيابه بأخرى وقالت :

— « وأنت أيها الوالد أى شراب تختار ؟ » فأجابها فى غير اكتراث : « الكل لدى سواء يا ابنتى . ائتنى بشراب الزيت . »

وسـارت الممرضة لتحضر لهما الشراب وهى مسرورة فى نفسها من حوار ذلك الشاب الظريف الذى أخذ يتبعهـا بنظره حتى غادرت الغرفة .

* * *

واستيقظ (حامد) فى الساعة السادسة صباحا على أصوات الطيور التى أخذت تملأ جو الحديقة بصفيرهـا . ورأى رفيقه الشيخ جالساً فى سريره يقرأ القرآن بصوت خافت والمسبحة فى حجره . ألقى عليه تحية الصباح فردها الشيخ باحناء رأسه كأنه يحرص على أن لا يقطع قراءته ، فاتكأ الشاب على ذراعه فوق الوسادة وصار يعبث بأطراف الغطاء بعد إذ رأى أن لا سبيل إلى محادثة رفيقه . وكان متعباً إذ قضى ليـــلاً مؤرقاً استيقظ فيه مرات عديدة بفعل الشراب الذى تناوله . وانتابته أحلام كثيرة غير هادئة . كان أكثرها حول أمه وأسرته التي تعيش فى الأسكندرية بعيدة عنه لا تدرى من أمره شيئاً . لقد حرص على أن يكتم عنهم خبر هذه (العملية) التى أقدم على احتمالها بعد أن أصر الأطباء على اجرائها . وهم كانوا يعلمون بما يشكو من ألم ، ويعرفون رأى الأطبـاء فى علته وكثيراً ما نصحوه بالحضور إلى الأسكندرية لاجرائها بينهم . وهو حيناً يحتمل

الألم هربا من فكرة العملية وما يقترن بها من خطر وإن كان غير كبير . وحيناً يعتزم التنفيذ إذا ما عاد إلى بلده . ولكن قد انتهى به الأمر أخيراً إلى الرضوخ لمشورة أصـــدقائه وقد لاحظوا ما يعانى من ألم فهونوا عليه الأمر وقدموا أنفسهم للعناية به فدخل المستشفى بين عشية وضحاها . وكان يدرى أن وصول خبر كهذا إلى أهله سيفزعهم ويقضى على راحتهم وليس يعود عليه منه شيء . فأمه عجوز لا تقوى على السفر إلى القاهرة ، وأخوته مشغولون بأمورهم فآثر الكتمان حتى تمر المحنة ويتماثل للشفاء ومن ثم يبلغهم الخبر عند مبارحته للمستشفى .

ولكن أتراه قد أصاب فيما اعتزمه من كتمان هذا الخبر ؟ ألا يحتمل أن يلحق به خطر من جراء العمليـة ، وأن تحضره الوفاة دون أن يرى أحداً من أهله؟ هذا كله جائز غير مستبعد. وان بلغ الطب غاية الكمال كما يقولون ، فالموت لا تمنعه إرادة ولا مهارة . ابتسم ساخراً من هذه الوساوس ورفع عنه الغطاء ونزل عن السرير يتمشى فى الغرفة وان كان يحس ببرودة فى جسمه وهبوط فى دقات قلبه .

ودخل رجلان من خدم المستشفى وأشارا إلى رفيقه الشيخ بأن يتبعهما . اضطرب الشيخ اضطراباً ظاهراً وقد أيقن أن اللحظة الرهيبة قد اقتربت فترك المسبحة على الفراش بيد مرتعشة ثم نظر إلى الشاب وقال :

ـــ« أشوف وشك فى خير يا ابنى » وسار خلف الرجلين .

رأى الشاب ما انتاب الشيخ من فزع ، وأحس بما فى عبارته من لهجة تنم على اليأس والاستسلام للقدر المخبوء، فأدرك أن للحياة قيمة لا تهون على المرء وأن عمرّ السنين الطوال . وأن السخرية بها خداع للنفس ومكابرة للغريزة . والا فما بال جسمه الآن يختلج أيضاً بمثل ما يساور الشيخ من قلق وخوف وقد كان من لحظات مضت يهزأ من الخطر ويرى الحياة غير جديرة بأن يأسف عليها أحد !! ولم يكد يبلغ الشيخ باب الغرفة حتى انتزع الشاب من لسانه المعقود وحلقه الجاف كلمتين يشيع بهما رفيقه : « تشجع أيها الوالد » .

ومضت نصف ساعة عاودت حامد فيها بعض الطمأنينة والسكون وأن ظل ذهنه مكدوداً . وعاد الرجلان يحملان رفيقه على محفة بينهما وأودعاه سريره وقد فقد كل مظاهر الحياة من تأثير المخدر الذى أعطى له . لم ينتظر حامد دعوتهما له وهو يعلم أن دوره قد حان . فسار أمامهما ثم أخذ يهبط درجات السلم المؤدية إلى غرفة (العمليات) التى عرف مكانها بالأمس. وكان يشمله هدوء غريب بل لترى فى قسمات وجهه ما يعبر عن سخرية واضحة وميل إلى الابتسام . ورأى الممرضة الشابة صاعدة فوقف حتى أدركته. مدت يدها لتحيته وهى تقول باسمة :

ـ « أراك متعجلا فى النزول ووجهك ضاحك . ولكن ألا تدرى أنك مصيب فى تقديرك وان الأمر من البساطة والأمان بحيث لا يدعو إلى أدنى قلق ؟ »

فأجابها وهو يأخذ كفها فى يده :
ـ " هذا ما أعتقده يا عـــزيزتى " .
ـ " ولكنى أحس بيدك باردة كالثلج ! هل تريد أن أصحبــك ؟ "

فأجابها ضاحكا ـ " ها قد بدأت تشكين فى ثباتى . ولكن ألا ترين كيف أصبح النهار شديد البرودة ؟ "

ثم أردف قائلا وهو يسحب يده ـ " شكراً لك . والآن اصعدى فقد تركت زميلى الشيخ فى غيبوبة تامة "

* * *

تنـاول حامد علبة السجاير التى كانت على مائدة قريبة من فراشه وأشعل واحدة منها وأخذ يدخن وهو راقد على ظهره بعد أن عادوا به إلى سريره عقب (العملية) . وكان يعجب من حاله ويتساءل هل تمت العملية حقاً ؟ هو لا يكاد يحس لها بألم مطلقاً ويرى نفسه فى يقظة تامة على العكس من رفيقه الذى ما يزال فاقد الوعى من تأثير (الكلوروفورم) . لقد أجلسوه على منصة مرتفعة بين طبيبين ثم حقنه أحدهما بسائل فى أسفل عاموده الفقرى فلم يبث حتى شعر بتراخ فى أطرافه السفلى ومن ثم انعدم فيها الاحساس والحركة كأنها لم تعد جزءاً من جسمه . وأكب الطبيب الآخر يعمل فى ذلك الجزء ما يشاء بسرعة ولم تمض دقائق قليلة حتى رفعوه عن المنصة وعادوا يحملونه على محفة الى سريره ويقولون قد انتهى كل شىء .

جميل ان يصدق ما أخبروه به ، وأن تبلغ مهارة الأطباء ،

حداً لايحس معه المريض لمبضعهم ألماً فى جسده . ولو كان يدرى هذا من قبل ما صبر على علته تلك الأيام الطويلة .

وكان فى الفترة بعد الفترة يمد يده تحت الغطاء يتحسس فخذيه ويقرص لحمها بأصابعه فلا يحس فيها حياة مطلقاً . حاول أن يحرك ساقيه ولكنه دهش إذ أستحالا إلى قطعتين باردتين فى ثقل الأحجار . ضحك فى نفسه وقال سبحان من يعيد الحياة إلى هـذا النصف المشلول . ومضى يطالع إحدى الصحف فشعر بالحرارة تسرى رويداً رويداً فى أطرافه ثم بألم يشتد ويقسو حتى خيل اليه أن ناراً تلهب جسده . أخذ يكظم ألمه ويصر بأضراسه كبتاً لأنينه ، ويتقلب فى فراشه على حذر . أدرك نعمة المخدر الذى كان يشل حساسية جسمه وتمنى أن لو استمر حتى يلتئم جرحه الذى لم يحس به الا الآن . وجاءت (سامية) الممرضة ورأته فى أشد حالات الكرب . حاول جهده أن يتجلد أمامها ويصطنع الابتسام ولكن عضلات وجهه المتقلصة والعرق الذى يتصبب من جبينه كشف عن آلامه .

وقفت الى جانب سريره وقالت بصوت رقيق :

ـ " تجلد ياعزيزى سوف لا يطول بك هذا الألم وسآتيك بكوب من شراب الليمون حالا . " ـ فأجابها فى توسل :

ـ " ألا يمكن أن أعطى (حقنة) أخرى من ذلك السائل المخدر حتى يمتنع الألم ؟ "

ـ " ما أحسب أن هذا ممكناً وأنت تدرك أن هذه المخدرات

تعطى بالقدر اللازم لتخدير الجسم وقت العملية فقط " .

.... ومضت أيام ثلاثة روض فيها حامد نفسه على الصبر ولم يكن يهون عليه آلامه إلا أن يرى سامية تسهر على راحته وتسرى عنه همومه بحديثها العذب . أصبح شخصها محبباً إليه يود لو استطاع ابقاءها إلى جانبه طول النهار . أعجبه منها روح مرح جذاب يشف عن قلب طاهر رحيم يمثل الحنان بطبيعته أكثر مما يدفعه اليه عامل المهنة .

وبدأ الزوار من الأصدقاء يفدون عليه بكثرة وكلهم حريص على أن يتحدث اليه ، ويطيل المكوث بجانبه ليذهب عنه السأم .

وكانت سامية ترى هذا وتدرك أثره فى المريض وتحملهم فى لطف على تركه وحيداً. ولكنهم كانوا يزنون عطفهم واخلاصهم للمريض بقدر ما يكثرون من زيارته ويطيلون معه فى الحديث. فما انقضى اليوم الرابع حتى ارتفعت حرارة المريض وبدت عليه ظواهر الحمى . وجاءت سامية فى المساء فدهشت وهى ترى مقياس الحرارة يتخطى الأربعين درجة . لم تشأ ازعاجه بهذا الخطر الجديد بل أسرعت الى استدعاء الطبيب لفحصه . وقضى حامد ليلة سوداء يهذى هذياناً شديداً وتتمثل له أحلام مضطربة مزعجة فهو طوراً فى مدينة الأموات يرى أباه وأقاربه ممن طواهم الثرى منذ عهد طويل يحيطون به ويرحبون بقدومه . وحيناً يفيق بعض الشيء فيحن الى رؤية أمه واخوته بجانبه قبل أن ينتقل الى

ذلك العالم الثـــانى الذى فتح بابه أمامه .

وظلت سامية ساهرة بجانبه ترقب حاله بقلق كبير حتى اذا تقدم الليل غمره عرق شديد وهبطت حرارة جسمه وراح فى نوم طويل .

ومر الاسبوع الأول وزال عن المريض خطر الحمى وأخذ يتماثل للشفاء بسرعة. ولم تقض محنـــة المرض على ما نفسه من دعابة فعاد يمزح مع سامية ويقول ان الحمى قد نقلته الى عالم آخر غريب ؛ بدا فاتناً فى صوره ووحشته يغرى بالبقاء فيه بين تلك الأرواح السابحة فى ملكوتها الهادىء بعيدة عن جو الحياة الثائر ، وان روح أبيه قد تلقاه بفرح وهو يعجب أن يراه شاباً يافعاً وقد تركه طفلا يتعثر .

ضحكت سامية لهذه الفلسفة التى لم ترق لها وقالت :

«أحقاً قد فتنت بذلك العالم الهادىء ورغبت عن دنيانا ؟ فلمَ اذن كنت تمسك بى وتقول انك تريد أن ترى أمك وانك لا تبغى أن تموت ؟ . رفت أهداب حامد وصمت قليلا ثم قال متسائلا :

ـ " أحقاً فعلت هذا ؟ "

ـ " طبعاً . وهل تحسب أن فلسفة الحمى تروق لك الآن ؟ "

فهز رأسه ضاحكا وقال :

ـ " لا أظن ذلك . ان من الخسارة حقاً أن يغـــادر المرء حياة فيها ملائكة مثلك ". فوضعت اصبعها على فمها وقالت مبتسمة :

ـ « صه . هل عدت لهذيانك من جديد . »

ـ " انى لأقول الحق ياسامية . فقد رأيت من حنانك ما أنسانى

افتقاری الی أهلی ".

تأثرت الفتاة من لهجة الشاب وقالت وهی تزدرد ريقها :

ـ " لم أفعل سوی واجبی یاعزیزی. وقد بدأت أدرك منذ اشتد بك المرض أنك وحيد فی هذا البلد ".

ثم تحولت عنه واتجهت نحو مائدة قريبة عليها آنية امتلأت بالورد وأخذت تنسقه بيديها ثم قالت :

ـ " ان مدام روجينا تحبك كثيراً، فهي تأتی للسؤال عنك فی كل يوم حاملة اليك هذا الورد الجميل ".

فأجاب حامد :

ـ " انها أرملة طيبة القلب وقد لبثت نزيلاً فی بيتها منذهبطت القاهرة. ولا أظنك ستصرين على أن تحجبينی عن الزائرين بعد اليوم. أنني أحس بالعافية فی جسمي. هل تريدين أن أقفز لك من السرير؟ ".

فقهقهت سامية وقالت وهی تلقی اليه بوردة كبيرة كانت فی يدها وتسرع نحو الباب تلبية لصوت أحد الأجراس :

ـ " انك شيطان كبير تنسی من يحادثك أن يفطن الی عمله ".

فصاح خلفها ـ " لاتنسی أن تعودی لأملی عليك خطاباً لأهـــلی ".

* * *

انقضى اسبوعان واستطاع حامد ان يغادر فراشه. فاعتزم ترك المستشفی والبقاء فی منزله حتی يتم له الشفاء اقتصاداً فی النفقات. وقف يرتدی ثيابه أمام المرآة فشعر بما لحقه من ضعف

وهزال وهو يجاهد فى سبيل الوقوف بثبات . ودخلت سامية فوجدته قد أتم ارتداء ثيـابه وجلس على حافـة السرير ويداه مشبكتان فوق عصاه . فقالت وهي ترمقه بعين تفيض سروراً :

ـ " هاقد استطعت أن تلبس ثيابك بغير معونة أحد فحمداً لله على هذه العافية . ولـكني لا أطمئن الى خروجك الآن وكان يحسن أن تمتد اقامتك هنا اسبوعاً آخر حتى تسترد قواك " .

فأجاب ـ " انى أغادر المستشفى تخلصاً ممـا يبعثه اسمه من قلق فى النفوس وخاصة فى أهلى الذين أنبأتهم بخروجى منه وان كنت سوف لا أجد فى بيتى مالقيته هنا من رعاية وحنان على يديك " .

ـ " لا أود ان تتحـدث عن هذا ياعزيزى . فليس يسرنى شيء أكثر من ان أوفق الى تخفيف آلام المتعبين . وفوق هذا فأنت شخص مهذب صمدت للآلام وحدك ولم تشأ أن تزعج غيرك بما أمتحنت به فكتمت أمرك عن أقرب الناس اليك . فهلا يحق لى أن أقدر فيك هذه الشجاعة واحرص على ان أرفه عنك بعض متاعبك " .

فاجاب حامد وقد أثرت فيه تلك العاطفة النبيلة :

ـ " هذه يد لا أنساها لك ياعزيزتى وأعـــد هذا الحادث فاتحة لصداقة أود ان تطمئني اليها " .

ـ " أوه . هذا أمر لا يحتاج الى توكيد فنحن صديقان بلا شك " ثم أعقبت قائلة فى جد وقد صبغت الحمرة خديها :

ـ " ولقد كان فى عزمى أن أزورك فى بيتك لأطمئن على حالك فأنت ماتزال فى حاجة الى من يعنى بك " .

فقال وفى صوته رنة السرور :

ـ " ستحضرين حقاً ؟ . هذا غاية الكرم منك . ان مدام روجينا سيدة طيبة وبيتها محترم ، وليس لديها نزيل سواى " .

ـ " لقد عرفت هذا من حديث معها وسوف لا أتجشم تعباً فى الوصول اليك وبيتك على مقربة من المستشفى " .

وقطع حديثهما دخـــول صديق جاء ليصحب حامد عند مغادرته للمستشفى .

* * *

قويت أواصر الصداقة بين حامد وسامية وقد ظلت تزوره أياماً متعاقبـــة حتى عاودته الصحة ورجع الى عمله فى مصلحة البريد . ولم تكن تلك الأيام القليلة الماضية ، برغم ماخالطها من ألم لتمر بلا أثر تحفره فى نفس حامد . لقد انتهت بشىء جديد جعل للحيـــاة مذاقاً حلواً . شيئاً كان يتفقده منذ أمد طويل ويحس بلهف شديد اليه ولم تستطع السنون الماضية أن تحققه له . فهاهى سنوات عشر أوشكت أن تتم مذ تركزت حياته فى ميدان العمل واطمأن الى رزق يؤاتيه من منصبه الذى يشغله فى الحكومة ؛ اذا استعرضها كمرحلة غالية من العمر ألفاها قد مرت فارغة على لون واحد ؛ ذاق فيها من لهو الحياة وعبثها مايشبع فضول كل شاب يافع حتى كره منها ذلك الفراغ الطويل وتبرم به . وليس كالشاب المصرى فى يتسع فراغه لكل شىء ولا يحسن استثماره .

ليست فى أفقه غاية ينشدها بل يلقى بنفسه فى تيار الوجود وليس يرغب الا ان يمضى اليوم ويخلص من عنائه عسى ان يحمل له الغد شيئاً يرضيه . حياة هى اشبه بالسخرة التي تشوه روعة الغرض الذى وجد المرء من أجله فى الحياة . قالوا له ليس أمامك الا الزواج ان لم تجد فيه كل السعادة فسوف تلقى فيه شيئاً كثيراً لم تألفه من قبل . أليس الوئام والخصام، والراحة والعناء ، ضروباً من التغيير والتلون قد تبعث على الراحة حيناً وعلى التعب حيناً آخر . أليست هى خيراً من حياة الأعزب الفارغة المتشابهة الصور .؟

هذا كله كان يعرفه . ولكن ليس الزواج بقيوده الآن ورجعية تقاليده بالذى يدفع المرء الى التعجيل به . مضت تلك السنون بالاسكندرية مسقط رأسه بين أصدقاء يجدون من صحبتهم الدائمة مايستعينون به على طرد مايغشاهم من ضجر ، ويأتمرون بذلك الفراغ ويفتنون فى قتله بشتى ضروب اللهو والعبث . ونقل الى القاهرة منذ أكثر من عام فبدت الحياة أكثر تعقداً وسآمة عن ذى قبل. فهو وحيد لم تستطع أسرته أن تنتقل معه ولم يجد من رفاقه فى العمل من يعوضه مودة أصحابه الأولين رفاق الطفولة والشباب .

ولكن جاءت الأيام التى أعقبت خروجه من المستشفى واتصاله بسامية فاذا هى تفضل على قصرها أعواماً طوالا مجدبة . تحققت أحلامه وعثر بصديقة رضية الخلق طيبة النفس . كم كان يسخط على تلك المجتمعات التي ينظمها الشبان وتخلو من عنصر المرأة . وكم كان يستهويه سلوك الغربيين وهم يجلون الفتاة

ويحلونها من مجتمعاتهم المكان اللائق بها فتغدق عليها من روحها حياة وبهجة . ان فى ذلك الابعاد الذى نحرص على التمسك به ، والذى نرى الخير فيه للمرأة ، قتلا لمشاعر نبيلة أحق وأجدى بأن توجد بين الفتاة والفتى . ان فى اقصائها اهداراً لشخصيتها وأمنها ولذاتها ؛ ومن حقها أن تحس بأن لها كياناً تعتز به فلا يستبد به أحد فتكسب احترام الرجل وتقديره اياها . ان بعدها عن أفقه أحاط شخصيتها بغموض يتهيبه الرجل ويخشاه اذا ما فكر فى انتخابها زوجاً له .

وأوشك عام ان يمضي بأكمله والعلاقة بين الصديقين تنمو وتزداد وهما فى غبطة وسرور . كلاهما كلف بصاحبه مسرف فى الاستمتاع بتلك العلاقة التى لم يتذوقها أحدهما من قبل . هى به جد واثقة ، فلا تتحرج أن تبدو معه فى كل مكان اذا ما خلت من عملها ، ولا ترى اثماً فى أن تغشى البيت الذى يسكنه مع الأرملة الايطالية، وأن تمضي وأياه أوقاتاً فيها للشباب متعة صافية طاهرة. وهما حيناً يتحدثان عن الماضى وما اختلسا فيه من سعادة وحطما فيه من قيود ، وحيناً يتحدثان عن المستقبل وما أبقيا له من أحلام وآمال وما يحفظه لهما فى طياته من هناء ورغد .

وبدا فى أفق حامد شيء يشغل تفكيره ويوقظه من تلك الغمرة التى راح ينسى فيها كل شيء . خطابات ترد من أهله وكلها تدور حول الجهود التي يبذلونها لنقله الى الاسكندرية .

لم يحفل بهذه الأخبار كثيراً وقد غدت القاهرة محببة اليه. أو

قل لم يكن فى استطاعته ان ينكر عليهم هذا الجهد وهو يعلم أن عودته اليهم هى غاية مايتمنون ، ولكن سرعان ماجاء النبأ بنجاح سعيهم ، وان وساطة أحد كبار الموظفين ممن تربطه بهم قرابة ذللت كل عقبة . وفى ذلك الخطاب قرأ شيئاً جديداً لم يكن يسمعه منهم من قبل ؛ هم يكتبون اليه الآن مبتهجين ويعلنون اليه عزمهم على تزويجه . بل يقولون ان الأمر قد انتهى وانهم قد خطبوا له ابنة ذلك الموظف الذى كان له الفضل فى اعادته الى الاسكندرية .

سخر حامد من ذلك النبأ وهو يعلم أن زواجه يعنيه أكثر مما يعنيهم ، وليس تورط أهله بالذى يقيده أو يبطل من ارادته . ولكن تركه القاهرة على الرغم منه أصبح أمراً مقضياً؛ وهذا معناه أنه سيترك سامية ويفترق عنها. لم يدر مايفعله أيكتب اليهم ساخطاً معلناً رغبته فى البقاء بالقاهرة ؟ ما أظنه يقوى على ان يفسد عليهم هذا الفرح الذى يلمسه فيما سطروه اليه . تملكته الحيرة ، وكتم الخبر عن سامية حتى يستوثق من انتقاله . وبعث اليهم بأنه لا يرغب الآن فى الزواج وليس لهم ان يقطعوا فى أمر كهذا قبل موافقته .

لم يخف على سامية مابدا على حامد من تفكير ، ولا ماتراه من الحافه فى رؤيتها بأكثر مما اعتاد ، ولا ماتلحظه فى مقابلاته من حرارة وان كانت لم تدرك لهذا سبباً . وهى قد أحبته بكل مافيها من قوة الشباب ، ووثقت من طيبة خلقه فاطمأنت الى

جواره ، وغدت وأباه يفكران فى الزواج الذى يختمان به تلك العلاقة . ولكن حديثاً جرى لها مع صاحبة البيت الذى يقطنه حامد عرفت منه خبر انتقاله المنتظر . تلقت ذلك النبأ بشىء من الهلع . أيتركها حامد الى تلك المدينة البعيدة فلا تعود تراه ؟ وهل ستبقى علاقتهما مع ذلك البعد قوية كما هى الآن؟ هى خائفة تخشى أن يخمد حبها فى قلبه اذا بعدت عنه، وان يغيب عن حياتها وقد غدا لديها أعز شىء فى الوجود . أسرعت الى رؤية حامد وما ان شاهدها حتى راعه ماهى عليه من حزن وأسى . تلقاها بين ذراعيه وهي تنتحب فأيقن أنها قد عرفت كل شىء . أخذ يهدىء من روعها ويكشف لها عن مبلغ آلامه لذلك الحادث الذى لم تكن له فيه ارادة ، وان أمراً كهذا لن يؤثر على مابينهما من ود متين ، وان شيئاً فى الوجود لن يحول دون ارتباطهما وسيعود عما قريب ليتما عقد الزواج . وتعيش معه بالاسكندرية .

وغادر حامد العاصمة بعد أيام فى المساء حتى تستطيع سامية ان تودعه. وفى نافذة القطار وفى اللحظة الأخيرة ، اشتبكت الأيدى فى حرارة ولهف ، وعبرت الوجوه عما فى نفسيهما من ثقة وأمل فى المستقبل .

* * *

شغل حامد بمظاهر الترحيب والفرح الذى سرى بين أهله ومضت أيام حتى استقرت به الحال فى منصبه الجديد . وعاد الأهل يتحدثون عن زواجه، وما وجدوه فى ابنة صبرى بك ذلك الموظف الذى عاد بفضل نفوذه الى الاسكندرية من

عروس جميلة تليق به . لم يشأ أن يكشف لهم عما فى سريرته ، وانه قد انتهى الى اختيار الفتاة التى ينشدها ، فهم سينكرون عليه أن يختار فتاة كسامية ليس لعائلتها شأن ولا خطر . بل قد يهولهم الأمر اذا علموا أنها كانت تماشيه وتختلف الى منزله. فهم مايزالون ممن يعيبون على الفتاة أن تعلق بشخص قبل أن يختاروه زوجاً لها ، وما الحب فى رأيهم إلا فجور وأثم وقيمة الفتاة فى عينهم بقدر ماهى عليه من تحجب وسذاجة . وما كان هذا ليؤثر فى عقيدته التى يدين بها ولكنه احتفظ بسره حتى لا يشوه من الصورة التى يرسمونها له فى مخيلتهم على أن يعمد الى اقناعهم بالنزول على رأيه .

ولم ينس حامد ان يكتب لصاحبته يبثها شوقه ويجدد لها عهده فيقع هذا من نفسها موقع الماء من النفس الظمآى المتحرقة ؛ وتكتب اليه بأحر مما يكتب وفى سطورها اخلاص المحب وايمان الواثق .

وان قلق حامد لشىء فلأن تصبح رأسه ميداناً لتفكير مضطرب، ونفسه تنازعها اهواء متضاربة. لم يعد يهنأ بتلك الطمأنينة والاستقرار الذى كان يسود أيامه القريبة فى القاهرة .

غموض واضطراب وتذبذب فى الشعور لا يرضيه من نفسه ولا يقوى على دفعه عنه . أصبح أمر زواجه حديث الأسرة فى كل يوم، كان فى بادىء الأمر لا يلقى لثرثرتهم بالاً وقد رآهم يتجهون الى غير ما اختطه لنفسه من سبيل . ولكنه بدأ يستمع لهم فليس يضيره ان يصغى الى ذلك الحديث المستفيض عن فتاتهم المختارة ابنة صبرى بك ، فاذا هم يشيدون بجمالها ويتحدثون عن

ثروة أبيها وما فى يده من سلطان فيضحك ويقول : خلوا عنكم هذا العناء فانتخاب الزوجة يعنى الفتى أكثر مما يعنى أسرته . ولكن ما كان يرضيهم منه ذلك العناد ولا تلك السخرية . فأى فتى لا يرحب بعروس جميلة ذات ثراء يمكنه ان يرتفع ويسود بنفوذ أبيها ؟ وهو قد بدأ فعلا يشعر بذلك النفوذ يؤتى بعض ثمرته فقد اختير لعمل ذى اهمية يؤهله للترقية بفضل صداقة ذلك الموظف لكبار رؤسائه .

هذه الظواهر بما فيها من اغراء وتلويح بالمغانم بدأت تسيطر على نفسه وتدفعها الى طريق جديد من التفكير . تفكير كان ينتهى بانتصار المادة وخذلان العاطفة والوجدان . تفكير قد تأثر بذلك الروح المادى الذى يسود العالم الذى يعيش فيه والذى يرى فى المال كل القوة والسعادة، وما يغنم المرء من لذاذات العيش الا بقدر ما بيده من تلك القوة ، وما القناعة التي يروض عليها نفسه الا خداع وستر للهزيمة والعجز . وحاول جهده ان يخلص من ذلك التفكير ولكنه لم ينجح فى محاولته . تمثل الحياة الزوجية بما تستلزم من انفاق وما للمال من أثر فى تيسيرها وتخفيف تكاليفها ، بل راح ذهنه الى ماهو أبعد من هذا الحد يوم رزق بنين يحب أن ينشأوا نشأة حسنة ويصيبوا من التعليم أوفره ، وهذا كله عماده المال وليس يحب ان يحرمهم التعليم لأن موارده تقصر عن تحقيق أمنيته . فان كانت له زوج على شيء من الثراء أمكنهما أن يتعاونا فى الحياة وأن يقوما بما عليهما من

واجب نحو ابنائهما . هذا مايعتقده فى نفسه مبرراً لذلك النوع من التفكير وان كان فى رأى البعض من الناس لا يخلو من شبهة الطمع .

ولكن لمَ جرى هذا كله بباله الآن؟ ولمَ لم يستذكره يوم دخلت سامية فى حياته وغمرته بذلك الحب القوى الفياض وهو يعلم ماهى عليه من رقة الحال وخلو اليدين من المال؟ لم اغضى الطرف عن ذلك ورأى فى شخصها فقط كل احلامه فكان سعيداً مغتبطاً يتعجل الزواج منها . أكان حين أقدم على ذلك الوعد قليل البصيرة تدفعه العاطفة أكثر مما يسيره العقل ؟ أم كان معبراً عن شعور صادق ، وأن ليس أحب الى قلبه من أن يراها رفيقة حياته وهو قد خبرها وأطمأن الى مابها من خصال فاضلة لايدرى هل سيلقاها فى تلك الفتاة المثرية التى يلوحون له بمزاياها أم لا ؟ . هـذا ما كان يعصف بهدوئه ويحز فى قلبه ويدفعه حيناً الى السخط على نفسه واتهامها بالتذبذب وقلة الوفاء لفتاته الأولى .

ودام الصراع شهراً آثر ان يقلل فيه من رسائله الى سامية حتى يستقر على حال ، وهو فى كل يوم ينقاد على الكره منه الى مالايرضاه فى صميمه ولا يستطيع مغالبة سلطانه. ففترت رسائله الى سامية ثم انقطعت .

* * *

عزيزى حامد

لا أدرى أأترك قلبى يسطر لك مايختلج فى صدرى من

شوق وحنين اليك وهو ما يحرص المحبون على أن يبدأوا به رسائلهم ؟ أم أترك قلبي يتحدث أولا فيشكو مايساوره من قلق وخوف لتلك القطيعة التى بدأ يفزعنى أمرها منك ؟ كلا الشعورين ينازع نفسى بقسوة ويحب أن يطغى على الآخر ويعلن عن وجوده . ولكنى أعود فانعى على ذاتى ذلك الضعف - أليس الاستسلام للأوهام ضعف كبير - ؟ وانعت نفسى بفساد الذوق حين افتتح كتابى اليك بشكاتى ومخاوفى . اعذرنى ياحامد وانس الأسطر القليلة السالفة ودعني ابدأ رسالتي من جديد وأنا فرحة مستبشرة .

عزيزى حامد :

ماذا أقول الآن ؟ مهما أجهدت ذهني وسخرت قلبى فلست بقادرة على أن أصور لك ماأحسه نحوك من ميل جارف . فلأعد الى تلك العبارة التى لا أجد أعذب منها ولا أحلى على قلبى وأقول : « انى أحبك » . وبقدر ماتبعث هذه الجملة فى نفسى من طمأنينة ، وما آنس فيك من وفاء ، أعود فاسألك فى لهفة المحب وعتب المخلص عن خبر هذه القطيعة . انى لا أصدق كيف احتملت الى الآن شهراً دون أن أرى لك رسالة ، ولا اعتقد أنك ترضى لى بلبلة الخاطر وتشتيت القلب . عدت الى آخر رسالة منك فأقول الحق لقد لمست فيها شيئاً جديداً فاتنى من قبل وراعنى الآن . وجدتها قصيرة غير حارة اذ قارنتها بماسبقها من رسائل . عذراً ياحامد اذا صارحتك بما اعتورنى حينذاك

من شك ولا ريب انى مخطئة فى ذلك كله . ولكن هى نفوسنا التى لا تشبع من حديث من تهوى ولا تمل سماع الفاظ الحب تتردد فى كل لحظة . وبرغم هذا ياحامد عدت أقول فى نفسي: أما كان له أن يطيل قليلا فى رسالته حتى يشبع لهفى عليه ؟ وأن يناديني (بسوسو) التى نسيها تماماً فى كتابه ؟ .

انى أعد الرسالة كزيارة منك . اقرأ سطورها فأتمثلك أمامى وكأننى أسمع الفاظها من فمك . فلذا لم ترضنى رسالتك القصيرة كما لا ترضينى مقابلة تدوم دقائق قليلة .

جال بخاطرى منذ يومين حين طال أمد الانتظار أن أحضر الى الاسكندرية لأراك وأطمئن على حالك فقد تكون مريضاً لاقدر الله . والا فما هذا الصمت الطويل عن مراسلتى. اشتدت بى الرغبة حتى هممت بالتنفيذ ولكننى عدت أضحك من نفسى فكيف أجدك فى بلد لم أرها يوماً من قبل، وكيف أترك أهلى على تلك الصورة التى لا ترضيهم ولا ترضيك عنى . لم أجد خيراً من أن ابعث اليك بهذا الكتاب أدون فيه كل ما أحسسته ولا أكتم عنك فيه أمراً .

وادركت أمى ماأنا فيه من اضطراب. فأفضيت اليها بهواجسى فراحت تهدى من نفسى القلقة فهي تعلم مابيننا من ود وماعقدنا عليه النية من زواج قريب .

أريد أن أقول لك شيئاً ياحامد ولكن لا تضحك مني كعادتك . سأهمس به فى أذنك: «أنني خائفة» واذا سألت نفسى

عن علة هذا الخوف لا أجد جوابا . أحس بفراغ كبير حولى ، وبشىء كثير ينقصنى هو بلا شك غيابك عن جانبي . وزاد من هـــذا الخوف أن عينى اليسرى ظلت أكثر من اسبوع ترف باستمرار وهى نذير بالكدر أخشاه كثيراً وطالما سخرت منى لهذه الأوهام. ولكننى لم أتمكن من الخلاص من تأثيرها فى نفسى .

وأمس الأول رأيت حلماً أصبحت بعده منشرحة الصدر . رأيتك ياحامد معي فى حديقـة جميلة منوعة الزهر متكئة على ذراعك نسير فى طرقاتها وأنت تتخير أحسن الأزهار وتجمعها لى . فلما قصصت الرؤيا على أمى ضحكت وقالت هذه «دنيا جديدة» ستدخلانها معاً . ثم أعقبت على ذلك قائلة : " ألم أقل لك ياخبيثة ان حامداً سيأتى قريباً وستصبحين زوجته . "

ذهبت الى عملى فرحة لاتسعنى الدنيـا ، وبذلت كل جهدى فى العنـاية بالمرضى وخاصة من كان منهم بالغرفة التى نزلت بها وعرفتك فيها اكراماً لك . هل ترانى أطلت الكلام معك ؟ لا أدرى لماذا أرغب فى أن أحدثك عن كل شىء ولو كان تافهاً وان لا تنتهى هذه الرسالة بسرعة؟ ستصلك غداً صباحاً، وستقرأها ضاحكا من ثرثرتى . فاذا انتهيت منها فاسرع بكتـابة الرد ولا أريده أقل من حجم رسالتى هذه . سوف لا يستنفد هذا منك وقتاً طويلا أعنى ستلقيها فى البريد قبل المساء فأتسلمها فى الصباح . حاذر أن تتباطأ . واذا قلت فى نفسك انى لى مادة الكلام التى تملأ صفحات أربع كحجم رسالتها فاكتب الىّ « انى أحبك » .

وكررها ولو ملأت بها كل الصفحات . سامية

* * *

هذه رسالتها التى تلقاها وقد حسب أن الأمر قد أوشك أن ينتهى بينهما ، وانها ستروض نفسها على قطيعته لها وتستشعر من صمته بأن شيئاً قد جد فى حياته ذهب بتلك الوعود التى قطعها لها . تلقى حامد الرسالة فهزت كيانه هزاً عنيفاً وتضعضعت من جرائها حواسه . بهت لتلك العاطفة القوية التى سرت فى رقة بين سطور كتابها والتى وقعت من نفسه الجاحدة وقع السيوف . ما حسب أن تذهب فى حبها إلى تلك الدرجة من القوة والسمو، وأن تفاجأه برسالتها فى الوقت الذى اعتزم فيه أن يخطب لنفسه ابنة ذلك الموظف الكبير ليرتفع على أكتافه . شعر بأنه يصغر ويتضاءل أمام نفسه ، ويفقد كيانه فى الوجود وقد تاجر بكرامته وأخفت صوت ضميره يوم قام يذكره بوعوده لها. أهكذا يطغى عليه تيار المادة ويجعل من زواجه محلا للمساومة فيفضل هذه لأنها ذات ثراء ويدع تلك لأنها معدمة؟ قد يعذر إذا لم يكن قد أسرف فى اتصاله بها إلى ذلك الحد الذى أصبح انكاره ضرباً من الخيانة . ألم يعلن إليها نخره بها لأنها استجابت لدعوته وخرجت على تقاليد الناس وصاحبته فأمكنه أن يخبر طباعها ويطمئن إلى انتخابها زوجاً له ؟ ألا تعد هى الآن ما جرى منه تمثيلا شائناً لا يشرفه كرجل برغم أنه كان صادقاً فى محبته لها وطالما حمد لنفسه ولها تلك الحكمة والقوة فى كبح عواطفهما حتى ظلت علاقتهما على خير ما يكون

من الطهر والبعد عن الدنس ؟ الا تكون معذورة فى زعمها
وهى ترى المبادىء التى كان يتحمس لها وينادى باتباعها تهجر
ويكون أول من يخرج عليها ؟. ماذا جنت من فلسفته ومسايرتها
له . ألم يشع أمرها معه بين ذويها على الأقل، فماذا هم قائلون عنها
إذا لم يتم الزواج بينهما ؟. هم لا يؤمنون بأن العلاقة التي نشأت
بينهما كانت خالصة بريئة ، وإذن سوف يلحق اسمها مايكفى
للقضاء عليها . ان المجتمع لم يتأهب بعد لهضم فكرة الاختلاط
بين الجنسين ولو لم ينته بالزواج ، والفتاة محقة إذا تهيبت تلك
الفكرة وآثرت أن تلزم عقر دارها حتى يأتيها من يقبلها زوجاً
له ولو لم تره من قبل من أن يُعبث بعواطفها وسمعتها . هاهو
يجنى عليها وعلى ذويها جناية كبيرة . أترى سوف يلقى السعادة
مع تلك الخطيبة الجديدة التى لم تقع عليها عينه والتى رجحت
كفتها لديه . أهو الهناء فى بسطة العيش ورخاء الحال وعلو
المراتب ؟ وهل الزواج متعة الجسم واشبــاع مطالب النفس
وكفى ؟ ان تلك الشهور التي قضاها فى صحبة سامية قد أذاقته
من لذة الحب وحلاوة العشرة مالا يحلم بمثله . أين ذهبت هذه
الذكريات وكيف خمدت ؟ أكانت رخيصة بهذا القـدر حتى
تذهب بها بعض زخارف المادة ؟ انه يحس بها الآن تطفو فى
رأسه وتملأ قلبه ويكاد يذهل لما هو مقدم عليه .

طأطأ رأسه فى ألم وهو يعصرهـا بين يديه . ومن خلال
أصابعه بدت رسالتها مفتوحة أمامه فهفا قلبه نحوها وتناولهـا

برفق وشغف . وقعت عينه على آخر عبـــارة فيها فاذا هى (انى أحبك). لمعت عيناه وشعر بسرور يشيع فى كيانه ويخفق له قلبه فأدنى الرسالة من فمه وراح يقطعها تقبيلا .

* * *

وفى اليوم التالى تلقت سامية هذا الخطاب القصير :

سوسو

ستصدق رؤياك وتتحقق الأحلام ويعقد قراننـا فى هذا الأسبوع . هل ترضيك هذه الرسالة القصيرة ؟

إن الفرح ليملأنى فلا أجد أكثر من هذا لأكتبه إليك .

قبلاتى الحـارة . حامد





حائر

ومات زوجها فبكته بدمع سخين وقلب دامٍ ، لأنه عماد بيتها ورفيقها فى حياة ناعمة امتدت إلى اثنى عشر عاماً . ولأنه والد طفلها (محمد) ويتم الصغار مفجع قاس .

وعادت (فتحية) إلى الاقامة فى بيت أمها الذى نشأت فيه ، وليس لديها من عدة للحياة إلا ثلاثون جنيهاً سعى أولو الخير فى الحصول عليها من صاحب المتجر الذى كان يشتغل فيه الزوج براتب بلغ الثمانى من الجنيهات بعد خدمة طويلة المدى .

وكان محمد فى مدرسته والأبوان مغتبطان به يقتطعان من دخلهما الكثير ليدخرا له نفقات المدرسة ؛ فالرجل الضعيف الذى يكسب عيشه بالعناء يلمس بيديه قسوة الجهاد فى سبيل القوت، ويشفق على فلذات أكباده أن تلقى فى غمار الحياة وهى ضعيفة الحول ناقصة العدة ؛ فيحرص على ان يزودها من التعليم بما يمكنها من استخلاص رزقها وأن لاقى فى تحقيق أمنيته كل العنت وضن على نفسه بالكثير من لذاذات العيش .

وفتحية لم تكن أقل من زوجها اعتزازاً بابنها وأصبحت الآن أشد ما تكون اهتماماً بشأنه ، وحرصاً على مستقبله وان

خلت يدها من المال واحتاجت إلى من يعولها وطفلها .

واستمر محمد فى مدرسته وقد بلغ العاشرة من عمره نزولا على إرادة الأم. واعتزمت الجدة أن لا تبخل على حفيدها بما تطيق من معونة ليستكمل تعليمه ما دام اليتم قد قصر عن أن يشفع له لدى المدرسة فتعفيه من أجر التعليم .

عاش الثلاثة عيشة لم تنزل إلى الرخص والكفاف ، فالجدة (قابلة) لها صيت فى الحى الذى تسكنه ، ولا تزال تجد من يستعين بخبرتها فى الولادة وان كان قد قل كسبها وزاحمتها المستشفيات المجانية .

* * *

والأيام تمر . والمرأتان تلحظان صغيرهما وهو يشب وتطول منه القامة ، وتتزن منه الأفعال ، ويذهب عنه الكثير من شقاوة الأطفال ، كأن اليتم قد بسط يده عليه بالسكون والانكسار فهو هادىء رزين ؛ فتفرحان وتألمان . تفرحان بنموه فهو رجلها الصغير فيه بهجة العين وسلوى الألم ، وفيه أمل المستقبل كله . وتألمان لأنهما تحسان بفداحة مصابه فى ابيه ، ولا تلمحان فيه مرح الأولاد ولا عبث الصغار ، وتنكران عليه هذا الهدوء والعقل ، وتودان لو أقام الدنيا وأقعدها بضجيجه ولعبه ، وبدا دائم البشر وطلب كل ما تشتهيه الأولاد فى مثل سنه . وإذا خرجت الأم لبعض شئونها فهى تعود وفى يدها شىء مما تلقاه فى السوق وتحسب أنه يرضى محمداً أو (حمامة) كما تسميه ويدخل السرور إلى قلبه .

والجدة أيضاً حنون ، يسرها أن يكون لديها (اسبوع) احدى الحاملات اللاتى وضعن بواسطتها لتعود إلى حفيدها مثقلة اليدين بأنواع الحلوى والحمص والبندق واللوز ، فيأكل منها الصبى اليسير وهى ترمقه بعين تفيض حناناً وغبطة وتود لو أتى عليها بأكملها دفعه واحدة .

شب محمد بين هذا الحنان والاعزاز وبلغ الثالثة عشرة من عمره وتقدم لأداء امتحان الشهادة الابتدائية ، وراح الثلاثة يترقبون النتيجة بقلوب يملأها الرجاء والأمل . الأم والجدة تصليان الفروض ولا تنسيان الدعاء لمحمد بطول العمر والسعادة فى الدنيا والنجاح فى الامتحان ؛ وتزيد الجدة من تقربها الى الله بركعتين عقب كل فريضة ليستجاب دعاؤها وتتحقق أمنيتها . ولم تنس أن تعاهد الأولياء الصالحين على (ختمة) من القرآن تؤديها الى أرواحهم الطاهرة اذا هم ناصروا حفيدها وبلّغوه ما يشتهى .

ونجح محمد وشمل السرور تلك العائلة التى تعيش على هامش الحياة لا يحس بها أحد يعمّر قلوبها الايمان بالله والرضى بحكمه. وأوفت الجدة بنذرها وترددت آيات القرآن بين جدران البيت ووزع محمد الطعام بيديه على بعض الفقراء والمساكين .

* * *

وفتحية ما تزال أمينة على عهد زوجها الراحل وقد مضت على وفاته ثلاثة أعوام . ترتدى الثياب القاتمة الألوان التى تشعر بحزنها الدفين وبغضها للتجمل والظهور . وهى سعيدة لأن لها

من ابنها ما يعوضها الكثير مما فقدت من متع الحياة وليست تبتغي إلا أن يعينها الله على تكريس حياتها لخدمته والعمل على إسعاده .

اتجهت الأبصار الى هذه العائلة التى اكتسبت عطف الجيران واحترامهم لها ، وراحوا يتحدثون عن الأرملة الشابة بكل خير فهى فى عيونهم مثال الصلاح والعفة والتدبير . وتقدم لها خاطب من أهل الحي ماتت زوجته وأراد أن يبنى بأخرى صالحة مدبرة . سخرت فتحية من هذا العرض فما حاجتها الى الأزواج وابنها صار ملء العين وهو أحق بعطفها وعنايتها من كل من فى الوجود ، وسيغدو عما قريب شاباً متعلماً يظفر من الحياة بوظيفة حكومية تكفل له ولها العيش وتكسبه جاها ورفعة فى أعين الناس .

ومضت شهور والخاطب ما يزال يجد فى الحصول على الأرملة ولم يصده رفضها المتكرر عن أن يجدد مسعاه فى كل فرصة . وكان رجلا قد تخطى الخمسين من عمره دميم الخلقة معوج العود يشتغل (سمساراً) للعقارات. وقد أصاب من مهنته مالاً غير قليل وان اشتهر ببخله وحرصه على درهمه. ماتت زوجته منذ أكثر من عام فاستوحش الحياة منفرداً فى الطابق الذى يشغله ؛ ورأى الجيران أن يخلصوا من تسخيره لهم فى قضاء حاجاته فشجعوه على طلب الزواج من فتحية . وهي وان كانت فى أعينهم شابة جميلة جديرة بزوج فى مثل سنها ، وان (خليل)

افندى شيخ مسيخ الوجه ، إلا أن من واجبها أن ترضى به بعلا فهو رجل ،والرجل لا يعـاب وان اجتمعت فيه كل نقـائص الخلقة مادام ذا مال يستر معايبه ، وهى أرملة ذات ولد وقليل من يبتغيها زوجاً له .

وراحت إحدى قريبات الرجل تكثر من زيارة الأم وتحملها على النصح لابنتها بقبول هذا الزوج الغنى . ان حرص الرجل ليس بالعيب الذى ينفر النـاس منه ، فهو يعرف قيمة القرش وستكون لديه آكلة شاربة منعمة ؛ وان قضى فسوف ترث منه الكثير . وماذا تؤمل فتحية من بقائهـا بغير زواج أتريد أن تعيش راهبة وهى شابة فى شرخ العمر ؟ وما هى فاعلة اذا ماتت أمها وعدمت نصيرها فى الحيـاة ؟ ان ابنها سوف يكبر وسيبحث أيضاً عن زوج له وسترى نفسها وحيدة بغير عائل .

والأم ترى هذا كله وتعلم أن الزواج حصن المرأة ، وتدرى أنها لن تبقى لابنتهـا وحفيدها مدى العمر ، وتشتهي أن يعود السرور الى قلب ابنتها وأن لا يذهب شبابها فريسة للهموم والأحزان . ولكن يهمها ويزعجها أمر محمد ومصير محمد . هى ستبقيه لديها بلا شك وتسهر على راحته بكل مافى جسمهـا الضعيف من قوة ، ولا ترضى أن يتبع أمه وقد أصبح يدرك شئون الحياة ويميز بين حنو الأب ومجاملة الغريب .

والابنة لا تكاد تسمع هذا الحديث حتى يملأها السخط وتعلن اصرارها على الرفض . من هذا العجوز القبيح الذى يطمع فى

امتلاكها ويبتغي فصلها عن ابنها ؟ إن نظرة إلى وجه محمد الصبوح ، وابتسامة من فمه الصغير لتعدل فى عينيها عالماً ملأه الذهب . أتتركه وحيداً وهو أعز إلى قلبها من نفسها ، أم تصحبه إلى بيت يحس فيه بالوحشة ويصيبه فيه الهوان ؟ انها لتذكر زوجها وقد حضره الموت وغل لسانه عن الكلام فراح ينقل بصره الذابل بينها وبين الطفل كأنه يجمع بينهما بعينيه ويناشدها أن تعنى به ولا تهمله .

ما لأمها راغبة كل الرغبة فى اتمام هذا الزواج ؟ أهى متعبة منها ومن ابنها ، أم هى مخلصة فى نصحها وكما تقول خبيرة بشئون الدهر من وفاء وغدر ؛ وانه ليس من الحزم أن تحكم العواطف فيما يتصل بالعيش وأن يفوت المرء على نفسه فرصة قد تكون ذات نفع وأن اقترن بها بعض الألم والمرارة . وانها وان تك سعيدة الآن بتوفيقها إلى عول الابنة والحفيد إلا أنها لا تطمع فى الخلود وتخاف أن تذلها الحاجة والعوز من بعدها .

وللقدر مشيئة تسود دائماً . فأصبحت فتحية زوجاً لخليل افندى .

وأنقد أمها بضع جنيهات مهراً لها وأخذت فتحية تجدد من ثيابها وأثاثاتها القديمة . وغدت كثيرة التفكير ، ظاهرة الحزن ، تشعرها كل حركة تؤديها فى هذا السبيل بتلك الحياة الغامضة التى تنتظرها فى بيت زوجها الجديد . ويتمثل أمامها فى كل حين بهيئته البغيضة يقترن بها ما عرف عنه من الشح والتقتير فلا

تنطوى نفسها إلا على أنات محزونة وألم مكبوت . ما أقسى هذه الحياة التى تذل النفوس وتكرهها على التماس العيش فى ظل من تبغضه ولا تطيق عشرته .

ومحمد يشاهد هذا التغيير ولا يدرك له مغزى . وان كان قد ناله البعض من الثياب الجديدة لأنهم كتموا الأمر عنه .

وقالت له جدته يوماً :ـ أتحبنى (ياحمامة) كثيراً وهل تحب أن تبقى معى دواماً ؟"

لم يفقه الغلام معنى لهذا السؤال فجدته وأمه هما كل من يعرف ويحب فى الحياة . وحسب الجدة تبغى الانفصال عنهما فقال ـ « أنا أحبك كما أحب أمى ولكن لماذا تتركيننا ؟ »

فقالت الجدة وهى تحتضنه : « وهل تظن أننى سأتركـكما ؟ سابقى معك (ياحمامة) وحدك . » ثم أردفت وهى ضاحكة : ـ « أما فتحية فلا تهمنا كثيراً ؛ وهل تحزن إذا ذهبت هى لتعيش مع ... مع قريب لنا ؟ هو رجل طيب ويفرح بك إذا ذهبت اليه ولكنك بلا شك ستبقى معى لأنك تحب جدتك العجوز ولا تريد أن تتركها وحيدة. »

وبين أحضان الجدة وقبلاتها المتعددة ، وذلك الحنان المتدفق الذى عاش فى ظله سنين غير قصيرة أخذ محمد يراجع أقوال جدته وهو أبعد مايكون تفكيراً عن الانفصال عنها واللحاق بأمه . ولكن من هذا القريب الذى ستذهب اليه وتعاشره ؟ قد يكون رجلا طاعناً فى السن ويحتاج إلى خدمتها له . ولكن

هذا سوف لايحرمه من أن يراها أو تاتى هي لتزوره مع جدته.
وكأنها أدركت مايجول برأسه الصغيرة فقالت مطمئنة له :
" ستقيم فتحية فى هذا الحى على مقربة منا وستراها فى كل وقت إذا أردت ذلك . " وانتقلت بتفكيره فجأة وهى تسأله :
ـ " لقد طالت بطالتك ياحمامة فمتى تفتح مدرستك الجديدة وتنتهى هذه (المسامحة) التى أنستك دروسك .؟ " فأجابها :
" ستفتح أبواب المدرسة فى أول الشهر القادم ياجدتى . وأريد بذلة كاملة ببنطلون طويل فقد كبرت ولا أستطيع دخول المدرسة الثانوية ببذلة قصيرة "
فضحكت الجدة وقالت وهى تجيل بصرها فى قامته لتتصور كيف تبدو فى البذلة الطويلة :ـ
ـ « ما شاء الله يامحمد ! لقد أوشكت أن تبلغ قامة جدتك . كم وددت أن تلبس هذه البذلة من زمن بعيد حتى تملأ عينى بقامتك الحلوة وتشعرنى بأنك قد أصبحت رجلا كبيراً . ستكون لك الحلة التى تشتهيها ومعها طربوش وحذاء »

* * *

وفى المدرسة الجديدة وجد محمد ما يشغل تفكيره ويشحذ من عزيمته . فقد بدأ يتلقى علوماً لم تكن معروفة لديه فى دراسته الابتدائية، ويلقى من صعوبتها وجدتها ما يحمله على المذاكرة والالتفات . ويتطلع إلى قامته فى المرآة فيحس بأنه يتقدم إلى الرجولة بسرعة، ويرى فى ذلك البنطلون الطويل رمزاً لها فيجب أن يكون جديراً بارتدائه، وأن يكون الرجل الذى تنتظره

جدته وأمه . والأخيرة قد اعتاد غيابها عن نظره الآن ؛ فما قد مضى على خروجها من بيت جدته ما ينيف على الثلاثة الشهور وبعد أن كان يرى وجهين يضحكان له ، وفردين يحرصان على ارضائه وإجابة رغباته ، أصبح يرى ذلك الحنان وتلك العناية مجتمعان فى شخص جدته . فهو لا يحس بنقص فيما عدا ذلك الفراغ الذى خلفته والدته فى البيت ، وهو مايزال يحمل لها حباً كبيراً ويشعر بأن تركها له ما كان زهداً فيه . فقد بكت كثيراً يوم أن انتقلت الى منزل ذلك القـــريب الذى قالت انها ستعنى بأمره وأدرك فيما بعد أنه زوجها . كان يذهب اليها كثيراً ولكن أصبحت مشاغل الدرس تحول دون التردد على بيتها . والفى الزوج شخصاً لا تسر العين برؤيته ، ولم يشعر فى نفسه بأنه كان يقوى على معاشرته إذا ما طلبت منه أمه الانتقال معها الى بيته . بل هو يحرص الآن على أن يزورها فى الفترات التى يغيب فيها ذلك الزوج عن منزله .

وحاولت الجدة أن تحببه اليه وتقول أن قريبهم هذا رجل طيب ويمكنه أن يعده كوالد له . ولكنه اصطنع الجهل ولم يشأ أن ينبأها بأنه قد فهم كل شيء ، وان أباه الذى مات لا يمكن أن يستعاض عنه بشخص آخر ، وأن زوج أمه غريب عنه ولا يعنيه من أمره شيء .

وفتحية الآن أشد ابتئاساً وضيقاً مما كانت قبل زواجهـــا الأخير . بل أن حالها الاولى لتفضل ما هى فيه الآن بكثير .

زوج ثرثار شحيح كريه العشرة ، ليست ترى فيـــه ما يعادل تضحيتها براحة ابنها وقبولها تركه لتصون دينها وسمعتها بالزواج كما تقول الناس . كان يؤذيها أن ترى الأم والابن وحيدين ، وقد هرمت الأولى وقلت فيها العافية وصارت تدبر شئونها وشئون حفيدها بعناء وجهد ، وكبر الثانى وأضحى كثير المطالب يلتمس من تعنى به وتقضى حاجاته بنشاط فلا يجدها . وكأنهما كانا يحسان بألم فتحية وقلقها عليهما ، فهما يكتمان عنها متاعبهما ويبدوان أمامها سعيدين ويأخذ محمد فى التحدث اليها عن مدرسته وسروره من ثناء المعلمين عليه ورضاهم عنه .

أما خليل افندى فلا تجيء سيرته فى الحديث . أوليس منهم من يحرص على أثارتها إذا ما جمعتهم جلسة واحدة فهو فى رأى محمد مغتصب لأمه ، وفى نظر الجدة زوج لا مناص من الرضا به وان كان قد خيب أملها فى العطف على العائلة وكسب مودة اليتيم ، وفى عين الزوجة رمز لحظ عاثر ، ومخلوق ممن يحابيهم القدر ويقذف بالمرأة فى أيديهم فترتضى العشرة صاغرة . وهم قد علموها من قبل أن تؤمن بأن حظ المرء من الحياة مكتوب وموعود .

وأوشك أن يمضى العام على زواج فتحية ، وابنها قد جاز الامتحان ونقل إلى السنة الثانية ، فاذا الجدة يداهمها مرض قاس عاجل لم تقو شيخوختهـــا على احتماله فتموت ويشتد الكرب بالابنة والحفيد .

بكاها الصغير باشد مما بكتها أمه وقد كانت له الملاذ الأخير وشعر بأنه أصبح وحيداً حائراً لا مأوى له غير بيت أمه ، بل بيت زوجها ، فكان هذا كافيا لأثارة أشجانه وتكدير صفوه .

وتلقاه الزوج بترحاب فاتر ، وراح يفكر فى أمر هذا الضيف الذى ستطول اقامته لديه بلا شك . ومرت فترة العطلة الصيفية ومحمد يكاد يقضى سحابة نهاره خارج البيت الذى لايحس فيه براحة ولا اطمئنان ، وفتحت أبواب المدرسة فوجد فيها مخرجا لضيقه وشغلا له عن التفكير فى حاله .

هو لا يدرى علة هذا البغض الذى يحمله لذلك الرجل الذى يأويه فى بيته . أن صوته الاجش ونظراته الحادة وسحنته المعقدة تبعث فى نفسه كراهيةً ورهبة . كم فطن الى عينيه وهما لا تنفكان عن مراقبته كلما جلس الى الطعام وكأنهما تعدان عليه اللقمات التى يتناولها فيشعر بأن شهوته الى الطعام قد زالت ، وأنه يجب أن ينصرف عن المائدة ولو لم يأكل شيئاً . والأم ترى هذه الحال فتغتم ويكاد يطير صوابها ؛ وتجهز لابنها طعاماً يتناوله فى غير حضرة الزوج . ولكن الأخير يلاحظ تخلف الصبي عن المائدة وانتحاله العذر بالشبع فيظن أن امرأته تؤثر ابنها بأطيب الطعام فى غيبته ؛ فيثور ويقول : انه لا يسمح لكل فرد أن يأكل فى الأوقات التي يختارها بنفسه بل يجب أن تتناول العائلة طعامها معاً فى وقت واحد فهذا أدعى الى البركة وأبعد عن الاسراف .

واستمرت الحال . ومحمد يحتمل المكاره صابراً ويبدو راضياً حتى لا يزيد من هموم أمه . وكلما لمس منه الزوج اعراضاً عنه ازداد له بغضاً وكرهاً . من هذا الصبي اللعين الذى لم يكن فى حسبانه ؟ إنه يتصفح (ميزانيته) الشهرية فيرى أن ماتستهلكه العائلة من الخبز والطعام قد زاد زيادة غير يسيرة . هو يطعمه ويأويه إكراماً لأمه العاقلة ولكنه لا يجد منه إلا كفراً بهذه النعمة . هو غير مكلف باستبقائه لديه بل هو أحق بكل رغيف يأكله هذا الغريب وأولى بادخار ثمنه لأولاده . نعم ستكون له عما قريب ذرية من فتحية فهى الآن حبلى وستأتيه بغلام تقر به عينه ويختصه بعنايته وأمواله .

وإن كانت الأمومة هى الغريزة القوية التى تضطرم فى نفس المرأة ، وتحبب اليها الساعة التى ترى بين ذراعيها طفلا هوجزء من كيانها تدلله ، وتفرحها مناغاته ويرضيها صراخه . إلا أن فتحية قد اكتشفت أمر هذا الحمل بذعر وبغض . حاولت أن تجهض نفسها فحملت مالا طاقة لها بحمله لتسقط الجنين ولكنها فشلت ، وتوالت الشهور ورسخ الجنين فى احشائها .

كانت تخجل من الظهور أمام ابنها كأن فى حملها خزياً وعاراً تبغى أن تستره عنه ، أليست ستأتيه بأخ من رجل تمقته وتعلم كره ابنها له .

وجاء الطفل دميم الخلقة كأبيه . فلم يحرك فى نفس الأم أية خالجة من الفرح أو الابتهاج شأن كل مولود بل تقبلته بشعور

غامض بعد أن لاقت من ولادته عسراً كبيراً . وسر الزوج بطفله الذى أتاه فى شيخوخته ، وكان يلزم البيت فى أكثر أوقاته بعد أن قل عمله فيدأب على طلب الاهتمام بالطفل وارضاعه كلما سمع له صوتاً . وكأنه كان يحس فتوراً من ناحية الأم فيرميها بالاهمال والانصراف عن شئون الطفل ويقول : أليس الصغير أولى بالعناية من الابن الآخر الذى تسهر على راحته وتقوم من فراشها مبكرة لتعد له طعامه وشرابه . ؟ وعبثاً تحاول أن تفهمه أن كل الأطفال تبكى وليس بكاؤهم دليلا على أنهم مهملون ؛ وان الصغير والكبير ولداها على السواء وليست بينهما مفاضلة .

وتضاعف كره خليل افندى لابن زوجته وهو يراه ينمو وتزداد به الأم تعلقاً ويرى فى عطفها البرىء عليه ايثاراً له على طفله . والأم لاتقوى على كتم محبتها لمحمد وان كانت تعلم أنها ليست متعصبة له كل التعصب وان الوليد يلقى من حنوها كفايته لأنه قطعة منها وهو بعد برىء لاذنب له .

وتقدم محمد لاداء امتحان شهادة (الكفاءة) ولم يكن يشتهي النجاح لأنه ثمرة جهده الكبير فحسب ، بل لأنه كان يؤمل أن يجد من ورائه وسيلة لكسب عيشه . فهو قد كره الطعام الذى يمن به عليه زوج أمه ،وشعر بحقارة الحياة والمرء فيها فى عوز يتلقى الفتات من أيدى الناس . لقد مرت به الأيام عسيرة منغصة . كان يفتقد فى لياليها الهناء الذى كان يستمتع به فى أحضان جدته وأمه قبل

أن يمتلكها ذلك الرجل ، فيراه حلماً لذيذاً بدده ذلك الزوج بدخوله في حياتهم واذلاله لأمه وتحكمه في عواطفها ، وخاصة بعد أن جاءت له بذلك الطفل الممقوت الذي ورث عنه قبح الصورة وثقل الروح .

وفتحية في لهفة وشغف تترقب نجاح ابنها وترى فيما حصله للآن مايعد عماداً يركن اليه في جلب القوت وان كانت في صميمها تشتهي لو استمر محمد في دراسته وأصبح طبيباً أو محامياً . ولكن اني لها ذلك وهي قد بذلت آخر مالديها من مال لتسد نفقات المدرسة في هذا العام الأخير . والزوج يتنمر ويجاهر بعدائه لابنها ويسمعها من قارص الكلام ماتستعذب معه الفرار بابنها من وجهه ولو انتهت بهما الحال الى الاستجداء . ان نجاح محمد ودخوله ميدان العمل سينقذه مما هو فيه من هم ، فقد يطيب خاطر الزوج ويمسك لسانه عن التعبير بما يمن به عليه من ايواء ونفقة اذا قدم له بعضاً مما سيربحه من عمله . هي تنتظر ذلك اليوم بفرح فهو النقطة الحاسمة في حياة ابنها بل وحياتها أيضاً . فمن يدري . ان في رأسها خواطر وحلولاً كثيرة قد يدفعها ماتلقاه الآن في هذا البيت من ضيق وعنت الى ان تسلك وابنها سبيلا يرضيها ويرضيه .

وتظهر نتيجة الامتحان وليس لمحمد نصيب مع الفائزين .

كانت صدمة ارتج لها كيان الأم والابن . آمال تندك ونفوس تسيخ من اليأس الى القرار ، ويكاد يتساوى في نظرها الموت

والحيـاة فكلاهما غدا مريراً ، وان كان فى الأول بعض الراحة والخلاص من الشقاء . والزوج لايخفى شماتته فى رسوب الفتى الذى تتيه به الأم ويعده انتصاراً عليها . كم قال لها ان هذا الولد المدلل الشامخ الأنف لا يصلح للمدارس، وان من الفائدة لها وله أن تبعث به الى أحد الصناع ليحذق حرفة من الحرف النـافعة فتوفر على نفسها نفقات المدرسة التى تذهب فى الهواء وتجنى من ورائه كسباً غير قليل .

وخشيت فتحية أن يعصف اليأس بابنها ويحمله على الانتحار فراحت تهون عليـه الخطب ، وتنتقص من قيمة (الشهادات) المدرسية ، وتقول انه بلا شك حاصل عليها فى عامه القـادم . ولـكن الفتى كان مغتما لأنه يعلم ان حظه من الدراسة قد انقطع ، وانه سوف لا يرى المدرسة بعـد اليوم فـلم يبـق لدى أمه شيء ذو قيمة تمده به . لقد باعت كل حليها خفية لتنفق على تعليمه ولم يدرك ذلك الا بعد أن رآها تتناقص حتى خلت يداها من كل حلية . فكيف يطمع فى العودة الى المدرسة من جديد .؟ هكذا نصيبه من الحياة وهكذا حظه منها . لقد سمع خليل افندى يحادث أمه فى شأنه ويقـول انه سيبحث له عن عمل يتكسب منه طالمـا لم يفلح معه التعليم . وأبت أمه أن تقره على رأيه لأنهـا تخشى أن يزج به فى حرفة حقيرة وهى لاتحب أن يهـان ابنها ويقصى عن مدرسته . وعادت تستحلفه أن يقرضها بعض المـال لتبقيـه فى مدرسته عاماً آخر ، وأقسمت

ان ذلك المال سيرد اليه فهو دين فى عنقها يؤديه عنها ابنها بعد ان يتم دراسته ويجد وظيفة فى الحكومة ترضيه . ولكن الزوج استنكر منها هذا الطلب وحسبها طامعة فى ماله فراح يقسم كذباً أن لامال مدخراً لديه وانه يجد الآن نفقتهم بشق الأنفس فقد أصبح عجوزاً وكسبه قليل .

سمع محمد هذا الحوار كله وهما لا يشعران بوجوده على مقربة منهما . قدر لأمه هذا الجهد الكريم الذى تبذله من أجله ولكن ماحيلتها مع زوج خسيس قليل المروءة . وقد يكون الزوج محقاً فى بعض ما يعتقده من عدم التزامه ايواء من هو غريب عنه واضطلاعه بنفقاته . فالحياة كفاح لاينال الكادح منها الا بقدر مايبذل من جهد ولا عجب اذا حرص كل فرد على أن يستأثر بثمرة عمله وان يكون أقل الناس التزاماً بشئون غيره .

* * *

دخلت فتحية غرفة محمد بعد ان فتحت بابها بهدوء . وكان الظلام مايزال يملأ الغرفة ، فسارت نحو سريره بخطوات بطيئة غير مسموعة ، ويداها ممتدتان تتحسس بهما الفراغ الذى حولها حتى لا تتعثر فى شىء يحدث صوتاً ينزعج له ابنها النائم . ومست يدها حافة السرير فاقتربت . وأحست بأنفاس ساخنة تنبعث منه فوقفت . نظرت الى النافذة التى تقع عند رأس النائم يغطيها ستر بسيط فوجدت غبشة الفجر ماتزال تملأ الكون السابح فى نعاسه وأحلامه . مدت يدها نحو النائم ولكن سرعان ماجذبتها وحبست أنفاسها كأن قلبها لم يطاوعها على ايقاظ الابن والناس نيام ينعمون

بالراحة . أخذت تتفرس فى جسده وقد بدأت عيناها تألفـان الظلام وترى بهما الأشياء فى صورة داكنة ، فوجدته مولياً وجهه نحوها وقد سقط الغطاء عنـــد قدميه فجذبته فى خفة وتؤدة فعاد يستره حتى نهاية كتفه . تململ النائم وتقلب فى فراشه فعاد وجهه الى الحائط وبعضه قد دفن فى الوسادة . طرق سمعها صوت الساعة تدق فى ردهة البيت فانتبهت وأخذت تعد دقاتها فاذا هى أربع . لم يبق من الوقت ما يسمح لابنها بالمضى فى النوم فيجب أن يستيقظ ليتولى عمله الجديد . هذا العمل الذى يفخر زوجها بأنه حصل عليه للفتى بعد الكد والتعب وشفاعة الوسطاء . ولكن ألا تبتئس وهى ترى ابنهـا الغض العود ينهض بعمل لا ينال معه الجسم نصيبه من الراحة ؟ ويا ليته عمل يرضيها أو يطمئن اليه الفتى بعد اذ قطع من الدراسة شوطاً غير قصير . (كمسارى) فى احدى السيارات العامة هو كل ما نال ابنهـا من مصادر الرزق . وهكذا تتلاشى الآمال الكبار فى ارتقاء مناصب الحكومة وتصبح كالسراب ، ويستوى حظ محمد بحظ تبلغه السوقة من الناس بلا عناء ولا كد .

مدت يدها وهى تتنهد وأجرتها على كتف ابنها مربتة ، ثم أخذت تمسح بها على باقى جسده فى حنو ورفق ، كأنها تزيل عنه كسل النوم وتبعث فيه النشاط . جفل الفتى وفتح عينيه بسرعة متفرساً بهما فى الظلام ولكن صوتها الرقيق أذهب خوفه فاستدار وأمسك يدها وشد عليهـا مظهراً سروره بوجودها الى جانبه .

جلس فى الفراش وقد أدرك السر فى هذا الايقـاظ البا كر .
وفتحت الأم النـافذة فتبدد الظلام الا قليلا ، وسرى فى الغرفة
هـــواء رطب جديد راحت تستنشقه بملء رئتيها وتقـول :
ـ" ماأجمل هذا الصباح الساحر يامحمد . قم وأطلل معى من النافذة "
وفطن الى مديحهـا للصبح فهى تحبب اليه هذا التبكير لأنه
صار يتصل بعمله فلا يتبرم به . نزل عن فراشه صامتاً وظلت
معه حتى ارتدى ثيابه ولم تنس أن توصيه بلبس (الصديرى)
الثقيل فهى تخشى عليه برودة الصباح . وتناول قليلا من الطعام
ثم رافقتـه حتى رأس السلم وعادت بعد أن تلاشى وقع أقدامه
على درجات السلم العديدة .

* * *

وكان يومه العـاشر فى عمله الجديد . كان من قبل يتولاه
بعد الظهر ويمضي فيه الى قبيل منتصف الليل . ولـكنهم قالوا له
ستأخذ دوراً يبدأ فى الصباح البا كر وينتهى عند منتصف النهار .
والأمر يبدو له سواء فمـا كان الوقت هو علة تذمره بل تلك
البيئة الحقيرة التي دسه فيها زوج أمه . جو من القذارة لم يألفه ،
وعمال لاخلاق لهم ، يسمع مايتبادلونه من ألفاظ السب فيرتعد
ويدهش ويحسب أنه فى حلم . وقد كان فى بدء اتصاله بهم موضعاً
لسخريتهم فيسمع البعض يقول : سيئول أمر هـذه الشركة الى
الافلاس مادامت ستستخدم (العيال) بدلا من الرجال الأشداء .
وهو يعجب الآن كيف انصاع لزوج أمه وقبل أن يكون
(كمسارياً) فى احدى السيارات ؟ لقد كاد الدمع ينفجر من عينيه

حينما ارتدى ثوب العمال الأصفر وتدلت الحقيبة بجانبه وبدأ يتلقى الارشاد من أحد زملائه. أما خليل افندى فقد هلل يوم أن أنقدوه أجره فى نهاية الاسبوع وراح يضعه كله فى كفه. فما يعنيه أن يكون الفتى راضياً أم ساخطاً وقد أصبح يجر من ورائه مغنما.

ودهشت أمه لعزمه وتصميمه على قبول تلك الوظيفة وما درت أن تهوين النفس فى جلب القوت أيسر من ارتضاء عيش المنّ من أيدى الناس. لقد كان يحس بآلامها الوخازة من أجله، نعم من أجله فلولاه لهدأت حياتها قليلا. فآثر أن يضع حداً لهذه الآلام ويحمل همه بيديه.

وضحك منها ليلة أن عاد من عمله فى اليوم الأول وقد راعها ابتئاسه وكدره فقالت لاأود لك هذا الشقاء من أجلى، دع عنك هذا العمل وانى سأغادر البيت واتبعك حيث تشاء.

ضحك من أن يدور بخلدها خاطر كهذا. أتترك بيتها وزوجها وابنها الرضيع لتتبع من لا يزال يتعثر فى الحياة ولا يقوى على النهوض بعبئه؟ لقد ارتبطت بذلك الرجل. وجاءها الطفل منه فهى أشد اتصالا به واحتياجاً اليه عن ذى قبل، أما هو فقد استوفى حقه منها فى تربيته ويشكر لها تضحيتها بمالها فى سبيله. ولكن أن تنتهى به الحال إلى عكس ما كانت تبتغى وما كان يؤمل فهذا مالم يفقه له تعليلا. وان كانت امه تقول أن هذا من قسمتها السوداء.

وكان منهمكاً فى عمله . وتقدم إلى شاب من الراكبين فى السيارة قد ولى وجهه شطر النافذة يتلهى بالنظر من ورائها وطلب منه ثمن تذكرة الركوب . تحول اليه الشاب ليدفع الثمن فتقابلت الأنظار . رأى محمد فى هذا الراكب رفيقه (كمالا) الذى كان طالباً معه فى فصل واحد وكان بينهما من التنافس فى احراز التقدم على زملائهما ما أوغر صدر كمال على رفيقه وهو يراه يبزه ويتخطاه . كان يستعظم أن يتقدمه طالب فقير كمحمد وهو ابن رجل كبير فى المدينة ، فصار يؤلب عليه زملاءه ويحملهم على مجانبته .

وقف محمد مبهوتاً وقد صدمته هذه المقابلة التى يكتشف فيها زميله القديم ما صار اليه أمره . هو بغير شك سيفرح بأن يراه فى هذه الوظيفة الحقيرة التى تجعل منه خادما له . أما كمال فقد تولاه العجب فى بادىء الأمر وأخذ يتفرس فى غريمه الذى وقف مسمراً فى مكانه مصفر الوجه ، حائر النظرات ، ويجيل بصره فيه طولا وعرضاً . وفجأة بدت على فمه ابتسامة صفراء فيها كل التشفى والشماتة ، وبدأ يبحث فى جيبه عن النقود بتؤدة وعظمة حتى تطول وقفته بين يديه ويشعره بمقامه منه . ثم ناوله قرشاً وقال وهو مايزال يبتسم : « لقد أراحك الله من المدارس (ياسى محمد) ودع العلم لأصحابه »

* *

لا يدرى الفتى كيف أتم نهاره وكيف عاد إلى بيته إلا أنه ما كاد يستقر فى فراشه حتى شعر بالحمى تفتك بجسمه .

وحسبت الأم أن ابنها قد أصابه البرد من جراء قيامه مبكراً فسقته شراباً ساخناً وأثقلت عليه الغطاء عسى أن ينضح جسمه بالعرق فيشفى. ولكنه لم ينم فى ليلته. ظل حادث اليوم يزحم مخيلته وكلمات غريمه ماتزال تلهب رأسه. علم أنه يسلك فى الحياة سبيلا رخيصاً فى رأى الناس وان كان قد خدع نفسه من قبل. والا ما هذه الشماتة الكبيرة التي أظهرها غريمه ؟ سوف ينشر هذا الحادث فى المدرسة كلها ويقول أن محمداً قد وفق إلى العمل الذى يليق بأمثاله. وان كانت صلته بالمدرسة قد انقطعت الآن الا أنه ما كان يشتهي أن يتصل هذا الخبر ببعض أصدقائه فيها. هم لا يعلمون الحاجة التى دفعت به إلى قبول هذا العمل، ولا يدركون قسوة الحرمان من رعاية الأب واهتمامه بابنه، فلكل منهم أب يسهر على شئونه ولكنهم لا يدركون كل قيمته لانهم لم يفقدوه.

صار يتململ فى فراشه وتند عنه الزفرات الحارة كلما تمثلت أمامه حياته الماضية بآلامها، والمستقبلة بسوادها وضيق أفقها. أيطيق البقاء فى هذا العمل ؟. أنه ليتصور أن كمالا سيجمع كل رفاقه من الطلبة ويأتى بهم غداً ليريهم محمد الكمسارى بحقيبته (وزمارته) ... أغمض عينيه برهة وهو يئن. واذا بخاطر يلتمع فى رأسه فيبعث فيه بعض الراحة ويحاول أن ينام. ولكن ترتطم بهذا الخاطر صورة لشخص عزيز لديه كاد أن ينساه فيعاوده التفكير والقلق. ضاق صدره واشتد به الكرب

ولـكن هاجساً صاح فى نفسه قائلا : " لا تنس الله .. "

فتح عينيه وصار يحدق فى سقف الغرفة المظلمة وكأنه يخترقه بنظراته الطويلة ويتطلع الى السماء فليس بينه وبينهـا حجاب . أحس بالطمأنينة تغمـــر قلبه وهو يـكشف لله عن سريرته . واغرورقت عيناه حين همس قائلا : انه كان يشتهى لو لم يـكن له من هذا الوجود نصيب حتى لا يتعب أحد من أجله .

* * *

لم يعد يخفى على الأم ما يـكنه أبنها من هم وكدر ، هو بلا شـك غير راض عن عمـله وان كان لا يحدثها عنه بكلمة . أتمنعه من الاستمرار فيه والزوج قد تبرم لانه انقطع عن عمله يومين لمرضه . كم تود لو ابتعدت به عن وجه ذلك الرجل الذى لا يرحم فقد يـكون العيش الشظف مع ابنها خيراً مما هما فيه الآن . ولـكنه لا يطمئن لهـذا الرأى وتذكر كيف يسخر منها كلمـا رددته أمامه ويقول لهـا انك لم تعودى لى وحـدى فلك زوجك وطفلك الآخر ..

وعادت إلى البيت يوما بعد أن قضت بعض حاجتها من السوق وكانت قد تركت محمداً بعد أن أخبرها بأنه سينام قليلا فوجدت زوجها قد عاد قبلهـا وجلس يتلو ورقة فى يده ووجهه مكفهر . لم يشعر بدخولها حتى إذا رآها أمامه بدا عليه الاضطراب والفزع . حدثها قلبها بأن شيئاً قد وقع وان أبنها ليس بخـير ، أندفعت نحو غرفته ولـكنها لم تلبث حتى عادت تبكى وتصرخ .

فقد وجدتها خالية منه ومن ثيابه كلها . أمسكت بذراعى زوجها تهزهما بعنف وتقول بصوت داوٍ رهيب: «محمد . محمد راح فين ؟»

أرتعب الزوج من رؤيتها على هذه الصورة حتى حسب أنها قد جنت وانها ستفتك به فتراجع قليلا وسقط الخطاب من يده وأجاب بصوت متلعثم :

« ماتخافيش . بيقول حايسافر ويعيش فى بلد تانيه »

* * * *

ومضت سنون ولم يقفوا له على أثر .



شريعة الحب[٧]

فى ركن مركبة من مركبات الدرجة الثانية جلس شاب فى نحو الخامسة والعشرين طويل القامة فى غير أفراط ، ممتلىء البنية على وجهه الحليق أثر كبير من الشحوب ، يحيط بعينيه السوداوين بعض الغور كأنه قضى ليالى عدة فى سهر مضنٍ . وكانت بجانبه حقيبة صغيرة امتلأت بالكتب القانونية تناول منها واحداً وراح يقلب صفحاته بسرعة حتى بلغ فصلا فى نهايته فأخذ يتلوه فى تمعن . ووقف القطار فى محطة (سيدى جابر) وسمع أحد الباعة ينادى على الحلوى والسجاير وذكر أن سجايره قد نفدت فقام وأطل من النافذة وابتاع علبة وظل متكئاً بذراعيه على حافة النافذة يرقب الناس وهى تتدافع فى الصعود إلى المركبات خشية فوات الوقت . ولفت بصره خادم نوبى فى ثوبه الأبيض الناصع ، وحزامه الأحمر وعمامته الكبيرة ، يحمل حقيبة ثقيلة وخلفه فتاة مصرية تمسك بيد صبى صغير . وكان النوبى حائر البصر يندفع على الافريز ليلتمس باب إحدى المركبات ولا يكاد يرى بضعة أفراد أمام الباب حتى يرتد عنه ويجرى إلى مركبة أخرى وهو لاهث ، يلمع وجهه بقطرات العرق التى

تتصبب منه . وكانت الفتـاة لا تقل عنه حـيرة وارتباكا فهى
تسرع خلفه هنا وهناك وتتطلع إلى النوافذ تلتمس مكاناً خالياً .
أشفق الشاب على الفتـاة والصبي الذى تجـذبه خلفها وخشى أن
لا يدركا القطـار لحماقة ذلك النوبى الذى يجرى على غير هدى
وأمامه المركبات العديدة التى لا يعدم فيها مقعداً لسيديه . نادى
النوبى ومد يديه من النافذة وتنـــاول منه الحقيبة وأشار اليه
بالدخول من الباب القريب منه . وبعد برهة قصيرة ظهرت الفتاة
والصبي فى المركـبة بجانب الشاب وكان ما يزال يصلح من
وضع الحقيبة على الرف . صفر القطار وبرز وجه النوبى الأسود
فى النافذة وهو يمسح العرق المتدفق منه ، وفمه مفتوح وصدره
يعلو ويهبط بسرعة ثم قال بلهجة انتزعها من أنفاسه المكروبة :

- "مع السلامة ياستى" .

استدار الشاب ونظـــر إلى الفتاة فاذا هى ما تزال واقفة
واضعة يدها على صدرها كأنها تسكن من دقات قلبها السريعة
التى أثارها الجهد الذى لاقتـه مع خادمها . سارت إلى جانب
النافذة وأطلت منها وهزت يدها تودع النوبى رغم ما لحقها منه
من عنـاء . وجلست على المقعد وهى تقول :

- " صحيح أن البرابره عقلهم ضيق الله يجازيك يا عثمان " .

جذب الشاب بنطلونه بأناقة فيما يلى الركبة كأنه يحرص على
الاحتفاظ بكيته ثم جلس أمامها بجانب النافذة الأخرى . وأدركت
الفتاة انها تلعن خادمها وانها لم تشكر الشاب الذى أنقذها من ذلك

الموقف المحرج فقالت بلهجة رقيقة فيها شيء من رنة الأسف:
- معذرة يا سيدى . لقد أنسانى ذلك اللعين أن أقدم لك شكرى العظيم .
- لا حاجة إلى الشكر (يامدموازيل) فما أرانى أتيت شيئاً يذكر.
ثم أخذ ينظر اليها فاذا هى فى نهاية العقد الثانى من عمرها ترتدى ثياباً أوربية بسيطة وقبعة من القش الأصفر وحذاء أبيض قصير الكعب . وكانت شمس الصيف الحارة قد لفحت وجهها الأبيض وذراعيها العاريتين إلى المرفق فاكسبت بشرتها سمرة خفيفة حلوة . وكانت عيناها عسليتين عميقتين لهما بريق فاتن أخاذ ، وأنفها دقيق وفمها كشق صغير لا تكاد تبصره .
وكان الصبي فى العاشرة من عمره ذا وجه ملائكى وعينين زرقاوين ، وشعر أشقر لامع يرتدى بنطلوناً قصيراً وقميصاً من الحرير الأبيض مفتوح الصدر . أشعل الشاب سيجارة وتناول كتابه ووضع ساقا على ساق وأخذ يقرأ . وكان يرفع بصره فى فترات متقطعة فيلقاها تنظر إلى الحقول الخضراء التى تقع على جانب الطريق وهي تتعاقب ويطوى بعضها فى بعض .
وساد السكون ولم يكن يسمع غير دوى القطار فى سيره السريع . وتناولت الفتاة حزمة من الورق واخرجت منها مجلة فرنسية وعدداً من مجلة (الأولاد) ناولته للصبي وأخذت هى تتصفح المجلة الفرنسية . وكان الشاب كلما أحس ضجراً من القراءة رفع بصره وتسلى بالنظر إلى رفيقته التى كانت عيناها

ثابتتين فوق المجلة ، وقدمها الصغيرة تهتز مع ساقها المرفوعة باستمرار . وكان الوقت صباحا والساعة قد جاوزت التاسعة واشتدت أشعة الشمس وأخذ الهواء يهب ساخناً محملا بالتراب . وتغير اتجاه القطار وأخذت الشمس تنعكس فوق زجاج النافذة وتغمر الفتاة فى جلستها . وكأنها استشعرت ضيقاً من حرارة الشمس فوضعت المجلة إلى جانبها وتأهبت لرفع اطار النافذة الخشبي . أحس الفتى بما تبتغيه الفتاة فقام وجذب اطار النافذة الى أعلى ثم أخرج منديله وأخذ يمسح ما علق بأصابعه من التراب .

- " أشكرك يا سيدى فان أشعة الشمس لا تحتمل مع هذا القيظ . "

- " هذا حق ولست أدرى كيف ساحتمل جو القاهرة "

فقالت الفتاة وقد اعتزمت أن تسترسل معه فى الحديث فهى قد زهدت القراءة وملت ذلك الصمت الطويل :

- " أذاهب الى القاهرة ؟ "

مط شفته امتعاضاً وقال - :

- " نعم فلم أكد أخلص منها فى الاسبوع الماضى حتى اضطررت إلى العودة إلى ذلك البلد المستعر "

فقالت مبتسمة - " هل لدى الأستاذ عمل طويل هناك "

اختلجت عيناه ودق قلبه سروراً فقد استعذب ذلك اللقب منها وعجب كيف علمت أنه ممن يدرسون القانون . حدق فيها فرأى الابتسامة تضىء وجهها . وكأنها أدركت دهشته

فصوبت نظرها إلى جانبه حيث وضع كتاب القانون المدنى فابتسم وزال عجبه ثم قال وقد احمر وجهه :

" انى أشكر الآنسة على هذا اللقب الذى خلعته على قبل الأوان وانى لأعده فألا حسناً وبشرى بالنجاح "

ـ " ألديك امتحان ستؤديه هناك ؟ "

ـ " نعم لقد ظهرت نتيجة امتحان الليسانس وهأنا ذاهب اليوم إلى القاهرة لتأدية الامتحان الشفوى " فقالت بسرعة :

ـ " آه . مبروك . "

وكأنها شعرت بان فى هذه التهنئة شيئاً من التسرع وعدم الكلفة فتورد وجهها واخذت تعبث بالمجلة التى فى حجرها .

ـ " شكراً يا مدموازيل . انى لأحس الآن بان رهبة الامتحان التى كانت تفزعنى ليلة أمس قد زالت تماما وانى سادخله بقلب جديد وأمل جديد "

أدركت الفتاة مرمى عبارته وايقنت انه تفاءل بوجودها معه وتهنئتها له ، فغمرها سرور داخلى وقالت وهى خافضة البصر:

ـ " هذا اطراء كبير يا استاذ وانى لأرجو أن يتحقق أملك فى النجاح "

وأرادت أن تسير بالحديث إلى ناحية أخرى ولكنها ألفت نفسها تقول :

ـ " وهل ترى الامتحان الشفوى أشد واقسى من الامتحان التحريرى ؟ "

ـ " بكثير . يمكنك أن تتصورى شخصاً جالساً إلى (الملكين) يسألانه . فهما يعدان عليه كل لفظ ويحاسبانه على كل كلمة تخرج من فمه . "

فقالت وهى ترمقه بنظرة ضاحكة وترفع قبعتها عن شعرها الأسود المقصوص :

ـ " مادمت مستوعباً لدروسك فمم تخشى ؟ "

فقهقه الشاب وزاد سروره وهو يراها تسايره فى حديثه ثم قال :

ـ " أن كل شيء تحشدينه فى رأسك يطير إذا ما جلست أمام الممتحنين . هلا جربت هذا الموقف يامدموازيل ؟ "

فضحكت قائلة ـ " لقد جربته طبعاً ولكننى لم أشعر بمثل تلك الحال التي تصورها لى "

ـ " ربما كنت أمام اساتذتك المعروفين لديك . أما أنا فبالله كيف لا ارتعد وأنا أمام مستشارين يفزع منهم المحامون أنفسهم . "

فندت عنها ضحكة طويلة كرنين الفضة ، وكأنها خجلت من نفسها فاخرجت منديلها الصغير وغطت به فمها وعيناها تلمعان سروراً .

وكأن الصبى قد أراد أن يشاركهما فى هذا الضحك فالقى بمجلته ونزل عن المقعد وسار نحو النافذة ووقف بينهما وهو يتطلع فى وجه الشاب .

أمسك الفتى يد الصبي وأخذ يربت عليها ثم قال :
ـ " وأنت يا صغيرى أليس لديك امتحان يزعجك ؟ "
فابتسم وقال فى سذاجة ـ " احنا خلصنا من الامتحان . ونجحت كمان . "
ـ " أوه يا بختك يا . يا ... "
ـ " أنا اسمى زوزو . "
ـ " يا بختك يا زوزو . وانت رايح فين دلوقت ؟ "
ـ " احنا رايحين هليوبوليس "
فمال الشاب برأسه ونظر إلى الفتاة قائلا : " إلى القاهرة " فهزت رأسها بالايجاب .
وهدأ سير القطار ووقف فى محطة دمنهور . واقبل بائع (الليموناده) فاستوقفه الشاب وتناول منه كوبين ناولهما للفتاة والصبى . أحجم الصغير فى بادىء الأمر ، ولكنها أشارت اليه بعينها فتناول الكوب وتبعته وهى تتمتم شاكرة .
وشرب الفتى كوباً مثلهما ثم اشترى شيئاً من الفاكهة وجلس وسار القطار .
ارتفع حجاب الكلفة وأخذا يتحدثان حيناً ويداعبان الصبي الذى أنس إلى الشاب وجاس بجانبه . وبعد برهة اقتسموا الفاكهة وأكلوها معا . أخذ الوقت يمر سريعا والقطار ينهب الطريق ، والقاهرة تقترب وكل منهما يشعر بأنه مر فى يومه وان الساعات التى مرت بهما كانت ممتعة . ولاحظت الفتاة أن الشاب

قد ضحى بالكثير من وقته ليحادثها ويذهب عنها سأم الطريق وكان هو أحق باستغلال هذه الفترة الطويلة لاستذكار دروسه. ولكنها لم تدر بانه كان يود فى نفسه لو يبدأ القطار السير من الاسكندرية من جديد ليتحدث اليها ثلاث ساعات أخرى. فقالت لاخيها الذى كان يقلب الكتاب بين يديه:

"اعط الأفندى كتابه فقد أضعنا عليه وقته الثمين"

فقال الصبي وهو يرفع عينيه إلى الشاب:

- "أنا ماعرفتش أفهم حاجة من كتابك ياعصام الدين افندى محمد."

ضحك الاثنان من سذاجة الصبى الذى ناداه باسمه الكامل الذى عثر به فوق جلدة الكتاب، وأخذ الفتى الكتاب من يده وفتح حقيبته وهو يقول:

- "سأعطيك شيئاً تقرأه وتسر منه." ثم نظر الى الفتاة وهو يدس الكتاب فى الحقيبة ليريها ان لاقراءة طالما هي معه. وأعطى الصبي مجلة هزلية مصورة. وما كاد يبصرها الصبى حتى ضحك ونزل عن المقعد واندفع نحو شقيقته وهو يقول:

- "عيشة. عيشة. تعالى نشوف كاتبين حاجة عن بابا النهارده."

اختلجت عينا الشاب وبدت على وجهه أمارات الدهشة وصار ينقل بصره بين الفتاة وشقيقها. فظاهرهما وملبسهما على شيء كبير من البساطة التى يلحظها فى الطبقات المتوسطة، فما

شان أبيها بالمجلات النقدية التى لا تتناول الا الشخصيات الكبيرة البـــارزة ؟ وقطع تصوراته صوت الصبي وهو يصيح ويدب برجليه على الأرض ويقول لشقيقته :

- "شوفى . بابا أهو . النهارده عاملينه كويس ."

تطلعت الفتـاة فى المجلة برهة وهي تبتسم ثم دفعت بها الى الشاب . مد يده وتناول المجلة وحدق فى الصورة فاذا هى صورة (ج . باشا) . رفـــع عينيه فى بطء وزم شفتيه وشعـر ببرودة تسيل فى جسمه . أحس كأنه ارتكب اثماً بمحـادثته ابنة الباشا على تلك الصورة من البساطة وعدم التحفظ . هلا تستكثر منه الفتـاة أن يخاطبها كفرد من عامـة الناس لا احـــترام ولا تبجيل ولا تحرز ؟ ولـكن من أين يدرى هذا كله . أكان من ضاربى الرمل أم من قارئى الـكف؟ ان ظاهرهما ساذج لا يلفت النظر ، ولم ير منها مايشعره برفعة مكانتها . كان يجب عليها أن تلفته الى ذلك ولو تلميحاً ولـكنها ظلت تحـادثه وتشاركه فى شرب (الليمونادة) وأكل الفاكهة كأنها فتـاة من طبقته . اذن فليس الذنب ذنبه . وعاد يستذكر الأحاديث التي دارت بينهما وهو راجف القلب ، فقد خشى ان يـكون قد جاوز الأدب أو خدش سمعها بلفظ غير مهذب . ولـكنه عاد مطمئناً فانشيئاً من ذلك لم يقع والحمد لله .

شعرت الفتـاة بما يدور فى رأسه وعرفت أنه نادم لأنه لم يخاطبها كما يجب ان يخاطب الناس بنات الباشوات فأشفقت عليه .

وزاد من ألمها أن تراه على هذه الحال من الحيرة والاضطراب .
لعنت المجلة التى ظهرت للصبي وكشفت للفتى عن حقيقتها .
كم كانت مسرورة وهو يحادثها ذلك الحديث الطبيعى الغيز المنمق ،
وكم كان لذيذاً ان تنسى فى حضرته أنها ابنة الباشا . بل هى لم
تفكر فى ذلك مطلقاً ولم تعن بأن يعلم عنها ذلك . ما الفائدة من
أن يعرف أنها ابنة رجل كبير ؟ لو درى هذا من بادىء الأمر
لأحجم عن التحدث اليها ولقاست مرارة الطريق وحدها .
أو ربما حادثها بعبارات حشوها الاجـــلال والاحترام وهى
قد زهدت ذلك كله .

ثم هو كان معها كريماً مهذباً ، وظريفاً فى حديثه وفكاهاته
ولم تشعر بأنها تذوقت جلسة كهذه من قبل . فما يعنيها بعد ذلك
أن تشعره برفعة شأن أبيها . قد يكون هو أيضاً من أسرة كبيرة
لا تقل عن أسرتها قدراً . ولكن مالها تكد ذهنها وترهق نفسها
بهذه الفروض وما شأن العائلات فيما هى فيه الآن ؟ انه كان
كريم الخلق وكفى . ألم ينقـــذها من ورطتها وهى تجرى على
افريز المحطة خلف ذلك النونى العبيط ؟ لقد ساعدها لأنها فتاة
وفتاة فقط . ولم يفكر ان كانت عظيمة الشأن أو من عامة الناس .

وقطع تفكيرها صوته المتلعثم وهو يقول :

ـ " عفواً يا سيدتى . لم أكن أدرى هذا من قبل وأرجو
أن لا أكون قد أثقلت رأسك الكريمة بثرثرتى ولجاجى . "

أخذت تغالب الضحك الذى أثارته تلك اللهجة الجديدة

التى تسمعها منه . ثم أجابت بصوت فيه معنى الاستنكار :

ـ " أبداً ياأستاذ أنك لاشك مخطىء . لقد كنت معنا وافر المروءة فقد أعنتنا واشركتنا فى طعامك وشرابك وهذا منتهى الكرم . ولاأحسب نفسى إلامثقلة عليكفانا التى أضعت وقتك الثمين بحديثى الذى لا طائل ورائه "

أثر فيه لهجتها الرقيقـــة وأدبهـا الجم فهدأت نفسه . ثم طوى المجلة والقى بها على المقعدوأخرج سيجارة وأخذ يشعلها . مد الصبى يده ليأخذ المجلة فقـال له بلهجة فيها الكثير من الجد والاحترام المصطنع :

ـ " لا . لا . يا زوزو بك . عن إذن سعادتك "

قهقهت الفتاة لتلك التورية الظريفة وزادت ميلا إلى ذلك الشاب البديع حقاً . وكأنها أرادت أن تذهب ما بقى فى نفسه من أثر وتريه كيف هى لاتحفل بذلك الفارق الذىصوره له ذهنه ، فتناولت حقيبتها وأخرجت منها عـــدداً من الصور الفوتوغرافية الصغيرة وناولتهـا إياه قائلة :

ـ "كيف ترى هذه الصور ؟ "

أخذ يقلبها بين يديه واحدة فواحدة . ولم يشعر إلا والفتاة تنتقل إلى جانبه وتشـاركه فى النظر إلى الصور . أحس بسرور عظيم وهو يراها تبالغ فى مجاملته ، وترفع كل كلفة بينهما وتريه صورها وهى فى ثياب الاستحمام على شاطىء البحر . ألا حيـا الله هذه الديموقراطية .

وكان يحس بكتفها يلتصق بكتفه وشعرها المضمخ العاطر يمس وجهه فيرتعش . وسألته :

" ألا تدرى أين أخذت هذه الصور ؟ "

أخذ يعيد النظر فيها من جديد ثم صاح :

ـ " هذا ساحل استانلى باى . أليس كذلك ؟ "

فابتسمت وقالت :

. " هو كما تقول فلدينا هناك (كابين) بقرب بيتنا "

ـ " أتسكنون هناك ؟ "

ـ " فى الصيف فقط "

ـ " اذن فنحن على مقربة منكم فمنزلنا بمحطة (فلمنج) "

فقالت وهى تبتسم : " يشرفنا هذا يا أستاذ . "

وأخذ القطار يقلل من سرعته وظهرت مبانى القاهرة فأسف عصام الدين لانتهاء تلك الرحلة . وقام ينفض عن ثيابه غبار السفر وينزل الحقائب عن الرفوف . وكان يود أن يسألها أهى راجعة إلى الاسكندرية قريباً ؛ ولكن لسانه لم يطاوعه على الكلام وقد ترى فى سؤاله فضولا وكفاه أنه استمتع بحديثها ثلاث ساعات . وسمعها تقول وهى تلبس قبعتها وتنظر فى المرآة :

ـ " هل ستمكث كثيراً فى القاهرة ؟ "

ـ " أسبوع على الأكثر "

ـ " كان الله فى عونك . ربما عدت قبلك بيومين "

واكتفى عصام بذلك التنويه الذى أرادت أن تشعره فيه بعودتها إلى الاسكندرية .

ووقف القطار فنادى أحد الحمالين وناوله حقائبها ونزلا سويا . لم يفه أحدهما بكلمة أثناء السير حتى وصلا إلى مخرج المحطة فوقفت الفتاة ومدت يدها اليه قائلة :

ـ " انى أشكرك كثيراً يا أستاذ وأود لك النجاح الباهر "

هز يدها الممتدة اليه وأمسك بها لحظة ثم قال وهو يحدق فيها :

ـ " انى أتقبل تمنياتك بكل غبطة ولا أنسى تلك الساعات العظيمة التى سعدت فيها بمعرفتك . وأرجو أن أراك قريباً "

فجذبت يدها وهى تبتسم ، وتقدمت إلى سيارة كبيرة كانت تنتظرها فركبتها مع شقيقها وانطلقت بهما السيارة .

* * *

نزل عصام الدين فى (البانسيون) الذى اعتاد الاقامة فيه كلما جاء القاهرة لتأدية امتحاناته . وقضى الليل فى الاستعداد للامتحان الشفوى . وكلما انتبه لذاته الفى نفسه يحدق فى الصحيفة التى أمامه وذهنه جاد فى التفكير فى تلك الفتاة التى رآها فى القطار . كان يهز رأسه ضجراً ويرى فى ذلك التفكير مضيعة للوقت الذى يمر سريعاً وهو فى حاجة إلى كل دقيقة منه . كان يفزعه أن لاينجح فى الامتحان الشفوي بعد أن جاز العقبة الأولى . ولكن ألم تبشره الفتاة بالنجاح وتلقبه بالأستاذ ؟ كان هذا الخاطر يبعث فيه الطمأنينة والأمل . فهو لا بد ناجح ولو لم يقرأ حرفاً فى ليلته .

وانتصف الليل وهو لم يقطع من الـــكتاب الا صفحات لا تعدو الخمسين ، فهاله الأمر وقد كان يؤمل أن يراجع المادة باكملها وهى تقع فى بضع مئـات من الصفحـات . ما العمل ؟ ثقلت رأسه بالأفكار والهواجس واحس بأنه لا يفقه شيئاً ممـا يقرأه فترك الكتاب واطفأ المصباح واندس فى فراشه .

وفى الليل كانت الفتاة تصاحبه فى أحلامه ...

واستيقظ مبكراً وأخذ يراجع مختصراً كانـــ قد أعده لكل مادة من مواد الامتحان وفى الساعة الثامنة غادر (البانسيون) ورأسه خالية ، وقلبه مفعم بالأمل .

واجتاز امتحانـــ القانون المدنى بنجاح لم يكن يتوقعه فعظم سروره وأيقن أن روح الفتاة هو الذى وفقه إلى حسن الأجابة .

ومرت الايام الباقيـــة . واتم عصام امتحـاناته وظهرت النتيجة فاذا هو من الفائزين . كاد يطير فرحاً ، وكم ود لو رأى الفتاة لينبأها بهذا النجاح كأنه واثق من أن ذلك يعنيها ويسرها . وعاد إلى الاسكندرية وفى رأسه صورة الفـــتاة . وسـاحل استانلى باى وفى قلبه شعور آخر مبهم غامض .

٭ ٭ ٭

كان عصام الدين يشغل منصب (سكرتير) أحد مديرى المصالح الحكومية بالاسكندرية . مال إلى دراسة القانون بعد حصوله على شهادة البكالوريا فعكف عليها وأتمها بنجاح متواصل . وكان مثقفاً واسع الاطلاع فظهر نبوغه فى المصلحة واسند اليه

منصب السكرتير الخاص . وكان والده من موظفى الحكومة المحالين على المعاش ولم يرزق سواه فعنى بتربيته . وكان يود أن يبعث به إلى مدرسة التجارة ولكن الفتى لم يكن يستشعر ميلا إلى تلك الدراسة فآثر أن يشتغل بعد حصوله على البكالوريا ويعمل على استكمال ثقافته بدراسة القانون . وكانت أعباء المنصب وخطورته وما تتطلبه الدراسة من مجهود شاق تحول دون اندفاعه فى تيار اللهو فظل رفيع النفس سامى الخلق .

عاد إلى عمله وتلقى التهانى من أصدقائه وخلص تفكيره من الدراسة ومتاعبها ، ولكن حل محلها شاغل جديد هو الفتاة ابنة الباشا . ولقب أبيها هو الذى كان يزعجه ويوقف تيار أحلامه . ألا ليت أباها كان (بك) فتكون هناك فسحة من الأمل فى التفكير فيها . ولكن (باشا) دفعة واحدة . هذا مايخرج به من دائرة الجائز المعقول .

ولكن لمَ يندفع فى أحلامه إلى ذلك الحد ؟ من أدراه بأن الفتاة تفكر فيه أو تذكره على الأقل . حقاً انه لساذج . هل وثق أنها تبادله عاطفته حتى يفكر فى أبيها ويخشى عدم رضاه عنها . انها لاشك قد نسيته بعدأن ركبت سيارتها الكبيرة الفخمة فما هو إلا شخص تطوع لخدمتها فكان حقاً عليها أن تشكره وتحادثه قتلا للوقت . هل كل من أدى خدمة لفتاة يطلب عنها الحب . أهى القلوب سهلة المنال إلى هذا الحد ؟ ياله من أبله لمَ يملأ رأسه ويحشو صدره بآمال كاذبة . أين هو منها . إذا

كان هو كموظف صغير لا يتناول أكثر من خمسة عشر جنيها يطمع فى الزواج من ابنة الباشا فماذا ترك إذن لابن البك وابن الباشا نفسه وممن يتزوج هؤلاء ؟!

حز ذلك التفكير فى قلبه وآلم شعوره كل الألم . ولكن هذه هى الحقيقة ، فالفوارق الاجتماعية لا يمكن تخطيها بسهولة . وهو يكرب نفسه ويحملها ما لا تطيقه إذا هو اندمج فى بيئة لا تناسبه . وهل فى مكنته أن يكفل لها العيش الرغد الذى تنعم به فى بيت أبيها أم ينتقل بها من معيشة القصور وما فيها من خدم واتباع إلى عيش فيه الكثير من الشظف والمرارة ؟ انه ليظلمها بذلك ويقسو عليها .

ومضى اسبوع .

ولم يفلح فى طرد صورة الفتاة من مخيلته . انها لقسوة من القدر أن يقع فى مثل هذا الحب ولكن لا مناص من قهر النفس وترويضها على النسيان واشعارها باستحالة ماتصبو اليه .

وفى أصيل أحد الأيام ساقته قدماه إلى ساحل (استانلى) وهو يخادع نفسه ويماريها ويزعم انه يبغى الرياضة فحسب . سار على الشاطىء فاذا بيد صغيرة تمسك به . التفت فرأى (زوزو) الصغير يتعلق به . خفق قلبه سروراً لرؤية الصبى وأيقن أن عائشه قد جاءت الى الشاطىء اليوم . ولم يدعه الصبى يفكر بل قال :

ـ " الكابين بتاعنا هنا . وعيشة هناك وشاورت لى عليك "

سار يتبع الصبي . ورأى الفتاة من بعيد جالسة على مقعد من القماش وهى مستلقية على ظهرها ويداها معقودتان خلف رأسها . ازدادت دقات قلبه وارتعش جسمه ، ولم يدر أكان من حظه أن يراها اليوم أم كان ينبغى أن لا يطأ هذا الساحل مطلقاً

واقترب من الفتاة فاعتدلت فى جلستها ومدت يدها مسلمة وقالت وهي تبتسم :

- " لقد دعوتك لاكرر لك تهنئتى "

فقال مبتهجاً وهو يجتهد فى تركيز نبرات صوته :

- " ومن أدراك بأننى قد نجحت ؟ "

فنظرت اليه بعينيها العميقتين قائلة :

- " ألم أبشرك بذلك من قبل "

ثم أردفت قائلة وقد صبغ الحياء وجهها .

- " ولم أر أسمك بين من رسبوا وذكرت أسماؤهم فى الجرائد " .

سره أن تهتم به هذا الاهتمام وتحرص على تتبع أخباره . وبعث قولها فى نفسه روحاً جديداً من الأمل . ولم ينتظر أن تدعوه للجلوس بل انثنى على الأرض واتخذ جلسته على الرمال على مقربة منها . نادت الفتاة خادمة أوربية كانت داخل (الكابين) وأمرتها باحضار مقعد له ولكنه رفض المقعد وفضل الجلوس على الرمل . ثم عاد يقول :

- " انى أتقبل تهنئة (الهانم) بكل سرور واغتباط واشكرها

اهتمامها بى ولا زلت أعزو الفضل فى النجاح لروحها الذى كان يتعهدني ويشد أزرى فى كل موقف"

والفى نفسه قد تمادى فى الحديث فعض شفته وخشى أن تتكدر الفتاة من ذلك التصريح الجرىء الذى فاه به فى حضرتها. ولكن وجهها الباسم المشرق لم يتغير ولم يتأثر بل ازداد فى نظره روعة وحبوراً. وأحست هى بما يعنيه بحديثه فكان حلواً أن تسمع منه تلك العبارة وكان توفيقاً أن تراه اليوم. فهى لم تنسه ولم تن عن التفكير فيه. كانت واثقة من أنه سيسعى لرؤيتها بعد أن عرف انها تسكن فى بولكلي وأن لها (كابينا) على الساحل ولكنها لم تسر من لهجة التحفظ ولا من لقب الهانم الذى بدأ يخلعه عليها. هى تريد أن يحادثها كما كان يحادثها فى القطار قبل أن يعرف حقيقتها. يحادثها بذلك الأسلوب البسيط الغير المنمق ولكن كيف تطمع فى ذلك وهو متأدب حريص. لن ينسى انها تعلوه قدراً ورفعة. ستكون صداقتها ان رغب هو فى ذلك على شيء كبير من التكلف والتقيد. وقد لا يطمئن هو إلى تلك الصداقة: فلم يرهق نفسه بمصاحبتها ولديه الكثيرات من فتيات طبقته اللاتى يرحبن بصداقته ويرتضينها فرحات. ولكنها ترغب كل الرغبة فى هذه الصداقة وهى على استعداد لأن تنكر مركزها ولا تبتغى منه اجلالاً خاصاً. فليخاطبها بمدموازيل وكفى. وما أحلاها من فمه، بل بأسمها المجرد ان شاء ذلك. لقد رأت شباناً كثيرين ولكنها لم تستشعر فى

أحدهم روحاً قوياً جذاباً كذلك الروح الذى تلحظه فيه . لقد ظلت تفكر فيه طوال الأيام الماضية ، وكان سرورها كبيراً يوم أن وثقت من نجاحه وليست تدرى لم كانت تترقب تلك النتيجة بشغف . وها هو يقول لهـا الآن أن روحها كان يمده بالقوة فهو يفكر فيها إذن . وهو لاشك قادم الآن ليراها ولا يمكن أن يدعى أن وجوده هنا من المصادفات ، فهى لاتزال تذكر اللحظة التي ودعها فيهـا على المحطة وكيف شد على يدها وتمنى أن يوفق الى رؤيتها . وسرها أن تصل إلى تلك النتيجة . ولاحظت أن صمتها قد طال . فالتفتت اليه قائلة :

ـ " هل يسمح الأستاذ بأن أقـــدم له كوباً من الشاى أو شيئاً من المرطبات ؟ "

وكأنه كان يشاركها فى تفكيرها الطويل فأفاق لصوتها وقال :

ـ " شكراً . لست أرانى فى حاجة إلى شيء من ذلك . "

وخشى أن يخونه جلده ، وذكر ما اعتزمه من عدم الاتصال بها فليس ثمة فائدة ترجى من وراء عـــلاقة كهذه فبدت عليه دلائل العزم وانتصب واقفاً ومد يده لوداعها . دهشت الفتـاة من تعجله فى الانصراف ولم تقو على استبقائه حياء منها وخجلا فهزت يده وقالت :

ـ " أرجو أن أراك على الساحل كلما اتسع وقتك لذلك "

فشكرها وحنى رأسه وانصرف .

* * *

ومضت أيام . ولم تر عائشة (عصاما) على الساحل فتأثرت

واصاب كبرياءها شيء من الهوان. ماذا حل به. لقد كاشفته فى صراحة برغبتها فى رؤيته فما باله لا يحضر ؟ أتراه لا يعنى بشأنها أم ينفر من مصاحبتها لأنها ليست من طبقته. لقد علمت من حديثه معها فى القطار بأنه يشغل منصب (سكرتير) فى إحدى مصالح الحكومة، وفوق ذلك فهو مثقف مهذب وليس فى مصادقتها له ما يجلب العار أو ينقص من قدر عائلتها. أيخشى أن تغضب أباها علاقة كهذه ؟ هى تعلمه أباً يقدس الحرية ويقدر رغباتها، ويحرص على رضاها، بل لقد ذكر لها يوما أنه تزوج من أمها لأنه شعر بأنه يجب أن يتزوج منها ولم يعن أكان ذلك مما يرضى أهله أم لا يرضيهم عنه. إذن لماذا ينكمش عصام ويتحاشى مقابلتها ؟ هو لابد لايحس ميلا اليها. وأكربها أن يكون ذلك هو الباعث على انصرافه عنها. أهكذا يخيب أملها فى هذا الحب الذى بدأ يملأ قلبها ويضىء حياتها ؟ ألا ليتها كانت كما يشاءها هو حتى لايحول شيء دون ارتباطهما.

* * *

وكانت تسير يوماً عند نهاية الساحل فأبصرته مقبلا من طريق غير مطروق ينتهى الى شاطىء البحر، فدق قلبها بعنف وانتظرت حتى ظهر على الساحل فاقتربت منه وهو لايراها وقالت :

ـ " لقد عثرت بك (ياهرّوبة) .. "

جفل الشاب لتلك المباغتة وارتد الى الوراء ثم صاح وقد احمر وجهه ولمعت عيناه :

ـ " عائشة هانم !! أوه انها لفرصة سعيدة. "

ثم عاد واقترب منها مسلماً . هزت رأسها وأخذت ثعبث بحـذائها فوق الرمال تبسطها وتفرقها ، ثم رنت اليه بنظرة فيها عتاب ودلال وقالت :

ـ "أهكذا تسلك هذا الطريق كى لا تمر من ناحيتنا ؟ انى لأعتب عليك كثيراً يا استاذ ."

بدت على الشاب دلائل الحيرة وظن أن لومها إياه على اغفاله زيارتها مجاملة منها فقط ، وهى لا تدرى كم هو يقاسى فى سبيل الابتعاد عنها وكم يود لو يراها فى كل لحظة ، وانه لم يحمل هذا العناء إلا لأنه لا يرى أملاً فى حبه .

تجلد فى موقفه وقال وهو يصطنع الابتسام والدهشة :

ـ "ان سيدتى لمخطئة فى هـذا الظن ، فلم أزر الساحل مذ قابلتها فى المرة الأخيرة وفوق ذلك فقد كنت معتزماً أن أمر بكم اليوم ."

أدركت أنه يمارى فى قوله وانه يصارع عواطفه ويخنقها . فرفعت عينيها وحدقت فيه طويلا ثم قالت :

" انى لا أصدق ذلك . اننى أعـلم السبب الذى تخفيه ."

ثم اقتربت منه وأردفت فى صوت خافت :

" ألا زلت تحرص على تلك الفوارق التى يجسمها لك الخيال وترى نفسك غير مطمئن لصداقة تقوم بيننا ؟ "

صمت الشاب وأدرك أنها عرفت مكنون سره وانها تحمل له وداً خالصاً . ولـكن ما الثمرة وما النهاية لتلك الصـداقة

التي تبتغيها منه ؟ انه لا يزال الفتى البسيط الذي لا يتطاول الى امتلاكها ، وهو لا يريد أن ينعم بصحبتها حيناً ثم ينتهي الأمر بينهما الى غير نتيجة . فأجاب وهو يتنهد :

- " انه ليسرني ويشرفني ان تكون ثمة صداقة بيننا ولكن . ولكن هذا لا يكفيني ياسيدتي ، واعذريني في جرأتي . "

ابتسمت عائشة وقد أدركت مايعنيه وقالت وهي خجلى :

- " ولم لا تطلب المزيد ؟ " فصاح بصوت راعش :

- " عائشة . ان هذا كثير لا أستحقه . لست أهلا لتلك التضحية منك . "

وكان لصوته صدى في نفسها أهاج عواطفها ومس أوتار قلبها . آلمها ان يحط من قدره ويعد نفسه غير أهل لها وهو لا يدري أنه في عينيها عظيم وفوق الجميع . ومشت الى ناحية كابين قريب مغلق واستندت الى حاجزه الخشبي وأناملها تعبث (بالدنتلة) التي توشي صدر ثوبها . وتبعها عصام فنظرت اليه فجأة وفي عينيها رجاء وفي صوتها عزم وقالت :

- " عصام . أراغب أنت في حقاً ؟ . "

هز رأسه وهو يتطلع الى السماء وقال في صوت حالم حسبها لم تسمعه :

- " يعلم الله كم أنت مناى ... " فقاطعته وهي تمسك بذراعه :

- " وما الذي يصدك عني ؟ ان أبي يعلم عنك الكثير . لقد تحدث اليه الصغير بأمرك وأخبرته أنا بما أبديت من مروءة وخلق

عظيم فاثنى عليك بل لقد رغب فى معرفتك."

صمت عصام ثم استدار نحوها وقال فى لهجة أسيفة :

ـ "عائشة. ان الفوارق التى بيننا بعيدة الغور. انى لا أرضى ان أنزل بك من عليائك لتشاركيني حياة لم تتذوقيها من قبل. كما لا أطيق ان أحيا عالة على أهلك فى بيت أبيك.. عائشة ان هذا لكثير."

واختنق صوته. ارتعدت الفتاة وقالت وهي دامعة العين :

ـ "عصام. سأشاطرك الحياة التى تسلكها الآن. وسأعيش معك كالفتاة التى كنت ترجوها، وكفانا بيت صغير أراك فيه وحدك"

وفاضت عبراتها.

طغت عواطف الشاب وهو يرى فتاته النبيلة تطأ التقاليد وتحطم الفوارق وتسمو بحبها إلى الذروة فأمسك بيدها ورفعها الى شفتيه يقبلها ويقبلها وهو يتمتم. "يالها من تضحية منك يا صغيرتى"

* * *

وكان الباشا من موظفى الحكومة المتقاعدين الذين اندمجوا فى الحياة العامة وبرز أسمهم فيها. وحدثته ابنته عن صديقها الجديد حديثاً طيباً أثار اهتمامه وحببه إلى نفسه. وزاره الشاب وهو يعمل لتلك الزيارة ألف حساب. ورآه الباشا وافر الأدب دمث الخلق وكم كان ظريفاً وهو يقول له :

ـ "انى لأرجو الباشا أن يغفر لى تطاولى إلى مقامه الكبير وجرأتى فى طلب الزواج من كريمته" فقال له باسماً :

ـ " يابنى لاتقارن شخصك وأنت فى مستهل حياتك بنفسى وقد بلغت نهـاية آمالى . لقـــد بدأت حيـاتى صغيراً مثلك وصرت إلى ما أنا فيه بجدى فـلم يترك لى أبى تراثاً ولا مجداً . وانى لأعجب بالشاب الجرىء المقدام الواسع الأمل . وما دمت مسروراً منهـا وهى بك معجبة فليس ثمة مانع من زواجكما فسعادة ابنتى هى كل ما أنشد الآن "

وأعقب الفتى على هذا ويكاد الخجل يقتله :

ـ " وهل يرضى الباشا بأن أعيش معها بقدر ما تسمح به مواردى الخاصة ؟ "

فأجاب ـ " ولم لا ؟ هذا شـأنكما تدبرانه بأنفسكما ولكما أن تهيئا عشكما كما تشاءان "

* * *

وفى « ڤيلا » صغيرة ذات حديقة زاهرة بمحطة (اسبورتنج) عاش الزوجان الجديدان حياة كلها الحب والسعادة ؟



العَـوْدة

جلس الشيخ (عرقة) إلى المائدة ليتناول غداءه ، وبدأت زوجته تضع أطباق الطعام أمامه بحركة فيها عنف ظاهر . وهو لم تفته ملاحظة حالها مذ دخل المنزل ، فقد كانت قسمات وجهها تنم عما فى نفسها من غضب لا تود كتمانه . وهو يعرف زوجته (زينب) وحدة طباعها ، وكيف تخلق من صغائر الأمور أسباباً لأن تغضب وأن تثور ، وأن يصيبه من كدرها شطر غير يسير . لذا آثر الصمت وتجاهل حالها حتي لا تنفجر أمامه وتسمعه مالا يحب .

شمر عن ساعده ورفع أكمام ثوبه الواسعة وبدأ يشرب الحساء . لاحظ بمؤخر عينه زوجته وقد جلست إلى مقعد قريب منه ويداها مشبكتان فى حجرها وإحدى قدميها تهتز فى عصبية عنيفة . وكانت ترقبه وهو عاكف على طعامه لا ينبس بنت شفة ، فيمضها منه هذا الصمت وتكاد تصرخ فيه لأنه لا يعني بسؤالها عما تشعر به . ثم تعود فتشيح بوجهها عنه وأناملها تعصر أطراف (الفوطة) التى ربطتها إلى وسطها لتحفظ ثوبها من لوث الطهى . وكان الزوج بطيئاً فى تناول طعامه فهو ليس فى

حاجة إلى الاسراع فى الأكل إذ كان اليوم يوم الخميس ولن يعود إلى المدرسة التى يقوم فيها بالتدريس، وفوق ذلك فقد كان الطعام شهياً لذيذاً فسره أن يتذوقه فى بطء وهدوء.

وقد تكون الفضيلة الوحيدة لزينب أنها تجيد الطهى، وهو يشهد لها بذلك وإن كان يود فى صميمه لو فسد طعامها وحسن خلقها معه.

كان مسروراً فى يومه لثناء مفتش (الوزارة) عليه ورضا ناظر المدرسة عنه، وما كان يود كتمان هذا السرور بل كان معتزماً أن يفضى بحديثه الى زينب، ولكنها لاقته بوجه معقد لا يحمل على الايناس. ولكن برغم هذا كله لم يشأ أن يحرم نشوة الفرح لأن زوجته ثائرة محزونة؛ بل راح يستمتع فى نفسه بذلك الرضا الذى ناله عن عمله وهو يعلم أن أمثال هذه الفرص يجب أن يستجلب منها المرء ما يمكنه من أمل، وأن ينعم بلذتها وان طغت حوله الأكدار والشواغل.

بان السرور فى وجهه برغم ما يصطنع من جد أمام زوجته، وعز عليها أن يطول صمته وأن يبدو على تلك الحال من الهدوء والراحة وهى تغلى كالمرجل وتكاد أعصابها تتمزق من الغيظ. واشتهى قطعة من (الليمون) يعصرها على طعامه وأبى أن يطلب ذلك إلى زوجته فيكون فاتحة لحديث لا يشتهي سماعه فنادى ابنته (مريم) التى جلست فى أحد أركان المطبخ وطلب أن تأتيه بقطعة من الليمون. وظهرت الابنة فى الردهة وكانت فى نحو

الثانية عشرة من عمرها سمراء اللون، ناحلة الجسم قذرة الثياب، يبدو على وجهها الصغير الشاحب أثر البكاء. مشت نحوه على حذر وقد مالت رأسها على كتفها وفى مشيتها آثار المذلة والخنوع التى تلحظها فى الخدم المستضعفين. وضعت قطعة الليمون على المائدة وارتدت عنها ثم ولت وجهها شطر المطبخ تنتظر أن يفرغ أبوها من طعامه فتنظف المائدة وتغسل الأوانى. أشعل ظهور الصبية غضب زينب وهى لم تتكدر اليوم إلا بسببها فصاحت فى زوجها قائلة:

- «أنت مش حاتشوف لك حل مع بنتك دى؟ أنا ما أعشرهاش أبداً يانا ياهى فى البيت ده انت سامع وألا لا؟»

جفل الشيخ عرفة لهذه الصيحة المباغتة ولكنه التزم الصمت إذ لم يجد شيئاً يقوله. أخذ يتشاغل بالأكل فقد اعتادت أذناه سماع تلك العبارات وما هو أشد منها وقعاً، ولكن زينب أبت أن تهزم وأن تذهب صيحتها عبثاً، وأن تقنع من زوجها بهذا السكوت الذى لا يشفى غلة، وان كانت قد اقتصت من الصبية بأكثر مما تستحق. فيجب أن يتكلم وأن يضرب الفتاة، ويسرف فى أذاها، فهى لا ترضى أن تبدو أمام ابنة زوجها ضعيفة لا يستمع لقولها ولا يؤبه به. قامت عن كرسيها وأسرعت الى المطبخ وعادت تجر الصبية جراً وهى تنتفض وتغطى وجهها بيدها اليسرى كأنها تحميه مما قد يقع عليه من لطمات. أثارت هذه الحركة انتباه الزوج فترك الملعقة من يده

وقد رأى الزوبعة ستهب فاستعد لها . وقفت أمامه وهي ما تزال ممسكة بيـــد الصبية تشد عليها بقوة وقالت بصوت حاد :
" يعنى بخلصك تروح تجيب الخضار تغيب ساعتين ولما أضربها قلمين تقعد تنوح ولا تساعدنيش فى الخدمة ؟ أنا مش عايزاها . أنا اخدم بنفسى ولا أشوفهاش معايا . محدش مخـرها غيرك لو كنت بتضربها ما كانتش تعمل كل ده . » ثم دفعت الصبية عنها بقوة فسقطت على الأرض باكية . تحول بصره بسرعة نحو ابنته التى انكمشت على بلاط الردهة ودموعها تسح فوق خديهـا ثم عاد ينظر إلى زوجته وقد بدت أمامه فى صورة الظـالم المسرف فى بطشه . هو يعلم مبلغ روايتها من الصدق ، ويدرى أن الصبية لم تأت بكل ماتحدثت به اليـــه ، وانها تمقتها وتصليها من أذاها أضعاف ما تستحق . يعرف هذا كله ويشهد بعضه فى كل يوم ، وكان حيناً ينتصر للزوجة فقد يكون لابنته طيش الأطفال وشقاوتهم مما يتحرج له صدر الزوجة وخاصة إذا كانت الصبية ليست بابنة لها تغفر لها هفواتها ؛ ولـكنه يرى الآن فى وجه الابنة ما يعبر بصدق عن مبلغ آلامها وما تلقى فى بيته من ظلم وارهاق على يد زوجته . وليس يظن أن تفتعل الصغـيرة كل هذه المظـاهر من الحزن والهوان ، فالهموم أبعد ما تـكون عن طبيعة الأطفال . وليس ثمت شىء يمحو ابتساماتهم ويقضى على مافى طبيعتهم من مرح إلا أن تسوسهم يد باطشة غير رحيمة .
تحول فى مقعده إذ شعر بأن شيئاً يحرك نفسه ويوقظها ،

وأن قلبه يهفو نحو تلك المخلوقة التي تبكي تحت قدميه .
ولمح زوجته وهي ماتزال في وقفتها تؤمل أن ينحاز إلى جانبها وأن يؤنب ابنته انتصاراً لها ، فثار الدم في عروقه وحدق فيها بعينين قد ألهبها الغضب وصاح فيها قائلا :

- " ياشيخه ارحمي يرحمك ربنا . هو انت مش خايفه يطلع ذنبها من عينيك ... "

ثم اتجه نحو الصبية وأخذ بيدها وسار إلى غرفة الجلوس حيث أجلسها على مقعد قريب وذهب إلى المطبخ ليغسل يديه وان كان لم يتم غداءه ....

* * *

عاد إلى الغرفة فلاحظ أن الصبية قد تركتها كأنها لا ترى نفسها أهلا لأن تجلس في غرفة الاستقبال النظيفة ، أو تخشى أن لا يرضى زوجة أبيها هذا التحدى . ازداد ألمه وأحس بما يحفزه لأن يقوم ويقتص من هذه الزوجة الطاغية ولكنه عاد ينكمش في نفسه . فهو وأن تكن له القدرة على ايذائها بيده وبلسانه ألا أنه بات يخشاها ، بل يخشى لسانها الطويل إذ علمته عشرتها أن من الخير له أن لا يثيرها وأن لا يطمع في التغلب عليها فهي قوية في شخصيتها عنيفة في غضبها . كثيراً مانعى على نفسه موقف الضعف أمامها فكرامته كزوج وكرجل كانت تستصرخه وتحفزه إلى النضال ، ولكنه نضال كان ينتهي إلى هزيمة منكرة له بعد أن يدوى صوتها على الجيران فيتأذى ويقنع بالسكوت حتى لا تنشب في كل يوم معركة . كم بحث في نفسه عن العلة في

رضاه بهذه العشرة ، وما الذى يحمله على أن يستبقيها لديه وهو القادر على أن يفصم مابينه وبينها من صلة بكلمة واحدة . لقد فكر فى هـــذا كثيراً ولكنه انتهى الى أن الحياة بلا زوجة عسيرة عليه . وليس يرضيه أو ليس فى وسعه أن يتزوج للمرة الثالثة ولم يمض على زواجه من زينب عام واحد . وهو لا يذكر هذا القران الا ويدرك خطأه الجسيم فى اقدامه عليه . فأن ما يعانيه الآن من متاعب وما عاد على ابنتـه من ألم ومذلة لعقاب له على فعلته . إثنى عشر عاماً طويلة قضاها مع زوجتـه الأولى (هانم) لم يتخللها من المتاعب مايرهق المرء أو ينوء به جلده . سنوات هادئة مضت بين القرية التى نشأ وزوجته فيها ، وبين مدينة (طنطا) التى تقع على مسافة غير بعيدة من مسقط رأسه حيث كان يقوم بالتدريس فى إحدى مدارسها الأوليـة . وكانت هانم تؤثر الحياة فى القـرية بين أهلها وذويها إذ كانت تشكو كثيراً من مرض الكلى فكانت تلقى منهم العناية التى لاتظفر بهـا إذا بقيت وحيدة فى طنطا . كان قنوعاً بتلك الحيـاة . قنوعاً إذا ظلت معه هانم ، غير ضجر اذا تركته الى القرية فقد كان يلحق بها بعد ظهر كل خميس ويبقى هناك سحـابة يوم الجمعة ويعود الى عمله فى نهاية النهـار . أما عطـلة الصيف فكانا يقضيانها فى قريتهما المحبوبة . وينعم هو بذلك الفـــراغ الطويل يشرف فيه على الأفدنة القليلة التي يمتلكها مع اخوته ويقومون بخدمتهـا بأنفسهم . وهو جد مغتبط بأن يجمع بين

راحة البال وبساطة العيش ، وأن يرى لنفسه تلك المنزلة المحترمة بين عشيرته يجلون من رأيه، ويجتمعون لسماع أحاديثه، ويتلقون عنه الكثير من أمور دينهم . حتى اذا انتهى الصيف عاد الى طنطا مع زوجته ليستأنفا حياة لاتختلف فى لونها عما مرت بهم من أيام . ورزقا بابنتهما (مريم) فكانت موضع عطفهما ومحبتهما . ولم يكن يقلق باله ويذهب ببعض هدوئه ألا أن يعاود زوجته مرض الكلى حيناً بعد حين فتلزم الفراش أياماً حتى اذا ذهب عنها الألم تاقت الى الرجوع الى القرية كأن فيها كل الشفاء، وكأنها لاتحس بالمرض الا اذا عاشت بعيدة عنها . كثيراً ما نهاها عن الذهاب اليها فمياهها الملوثة بالطين هى سبب ما تعانيه من ألم ولكنها كانت تضحك من قوله وتقول أن ماء الترعة الذى يرشح (بالزير) لهو أنقى وأشفى من ماء المدن الذى يفسده ما يوضع فيه من عقاقير .

ومضت السنون وأصبح مرض هانم شيئاً يألفه وهو بها راض غير متبرم . وحفظت له تلك المودة والعناية فغدت أقل تعلقاً بالقرية وصارت لاتفارقه الا أن يذهبا اليها سوياً فى نهاية العام ليقضيا فيها عطلة الصيف . وصدر الأمر يوماً بنقله الى احدى مدارس الأسكندرية ، وهو يعرفها مذ كان فيها طالباً بالمعهد ويعرف غلاء العيش فيها وكثرة نفقاتها . لم يسره هذا الانتقال ولم ترض عنه هانم، فهو سيباعد بينها وبين قريتها وأهلها، وسوف لاتطمئن على زوجها أن تتركه يعيش وحده فى

تلك المدينة الكبيرة ونساؤها كما سمعت يخابن العقول ويفسدن الرجال. وسافر الى الأسكندرية ليباشر عمله حتى اذا استقر به المقام لحقت به زوجته . اتخذ له مسكناً على مقربة من المدرسة ولم يكن يشق عليه أن يعيش بمفرده وأن يهيأ طعامه بنفسه، وهو قد ألف ذلك مذ كان فى طنطا وزوجته بعيدة عنه. ولكنه بدأ يشعر بالحياة أكثر يسراً وسهولة عما كان يتصور. فقد وجد من جيرانه الذين يعيشون فى المسكن المقابل له كل عناية واهتمام بشأنه. لم يعرف سبباً لهذا التعب الذى يتجشمونه من أجله وكثيراً مارفض خدماتهم فى لطف، وأفهمهم أن فى قدرته أن يفعل كل شيء دون الاستعانة بأحد. ولكن جيرانه بدوا أكثر كرماً ومروءة مما كان يحلم. ومرت أيام فاذا العائلة قد اندمجت فيه وقامت بكل أموره على كره منه . حمد لهم تلك اليد واعتزم أن يكافأهم ببعض الطيور وغيرها من هدايا الريف التى يفرح لها سكان المدن مما ستجلبه معها زوجته.

مرت هذه الذكريات كلها بمخيلته فى سرعة البرق وهو جالس يدخن بعد الطعام. حتى إذا وصلت به الذكرى الى بدء علاقته بهؤلاء الجيران وكيف انتهت بتورطه فى الزواج من ابنتهم (زينب) تجهم وجهه وخرجت من صدره زفرة طويلة. ما كان يجرى بخلده أن تتآمر به تلك العائلة وأن تعمل على إيقاعه فى شركها، وأن تنتى به الحال إلى طلاقه لزوجته الأولى

بعد الزواج من ابنتهم . هو لا يكتم سخريته من نفسه وقد فاته
أن يفطن الى حيلتهم و يعلم أن تلك الخدمات التى كانوا
يقدمونها له لم تكن خالصة لوجه الله .

كانوا يعلمون أن له زوجة وأنها ستصل اليه بعد أيام قليلة
ولكنهم رموا بشباكهم حوله واستطاعوا أن يقتنصوه ، وأن
يمنعوا حضور الزوجة بل و يقطعوا صلته بها . هم بلا شك دهاة
ولو كانت كل الأمهات فى مثل دهاء (أم زينب) لما خشيت
أم بوار ابنتها أو قلقت لانصراف الرجال عن الزواج . لقد
أظهرت له كل عطف كأنه ابن ثان لها . هذا مسكنه ينظف
كل يوم ، وثيابه تغسل كلما اتسخت ، وفى الليل تطرق بابه مع
ابنها الشاب ليقضوا شطراً من الليل يسمرون . كان يجلها و يسر
من حديثها وهى تجلس أمامه فى وقار ، وقد لفت رأسها وكتفيها
(بطرحة) بيضاء ناصعة والمسبحة لا تفارق يدها . ورأى
زينب عدة مرات فى الممر القصير الذى بين المسكنين فكانت
تجرى إذا رأته كالظبي النافر ، وفيها خجل العذراء وفتنتها .
اعتذر لأمها مخافة أن يكون قد جرح شعور الفتاة بمفاجأته لها
ولكنها ابتسمت وقالت أنها واثقة من خلقه الكريم وهو لديها
كأبنها الأكبر . وعلى هذا التسامح وبتلك الثقة الكبيرة التي
وضعتها فيه الأم أصبح يرى الفتاة مراراً أمام عينيه باسمة غير
نافرة . لم يكن يلقى لهذا بالاً ، بل كان يرتد إذا صادفها أمامه
حتى تتوارى ويعجب لهذا التطور فى أخلاق سكان المدن

مما لم يلحظه فى حياته الأولى بالأسكندرية . ولكن جرأة الفتاة وعدم حرصها على الحجاب دفعته الى أن ينظر اليها ويطيل فيها النظر . كانت بيضاء جميلة كاملة النمو حسنة الثياب فأعجب بها فى نفسه . ومضت أيام ازداد فيها الاعجاب وخشى منه على نفسه . وتراءت له صورة زوجته بقوامها النحيل ، ووجهها المصفر ونفسيتها المكتئبة لما تحس به من مرض يلازمها ، فأذا الفرق بينهما بعيد . طرد الصورتين من مخيلته واستعاذ بالله من وسوسة الشيطان واعتزم أن يحضر زوجته التى أخلصت له وأخلص لها سنوات عدة ، وان كان يشتهى فى صميمه لو كانت هانم بيضاء صحيحة الجسم كزينب ابنة الجيران .

لم يعد يهدأ له بال مذ تركزت صورة زينب فى ذهنه . أصبح يسر أن يراها وأن تتحدث عنها أمها ، وأن يسمع منها أن الطعام الذى يستطيبه هو من عمل زينب وصنع يديها الحلوتين . مضى الموعد الذى ضربه لأهله لذهابه اليهم واحضاره لزوجته . وجاءه خطاب يتعجلون فيه سفره اليهم فازداد به التفكير وتنازعته الاهواء . شعر بخطورة الحال اذ أدرك أنه أصبح يشتهى زينب ويصبو الى امتلاكها .

وفى ليلة اشتد فيها الصراع بينه وبين عاطفته انتهى الى أن من الخطر أن يبقى فى ذلك البيت فقد بات يخشى على نفسه الفتنة والغدر بزوجته . ولكن الجيران كانوا فى انتظار ذلك اليوم الذى يعلق فيه بأبنتهم ؛ وما كانوا ليتركوه فيذهب جهدهم

هباء . صارحهم بعزمه على الانتقال من البيت لأسباب انتحلها وأبدى أسفه لفراقهم فأظهرت الأم دهشتها . ولما رأت اصراره أفهمته فى لباقة وخبث بأنه قد دخل فى حياتهم وأمورهم الى حد أثار لغط الجيران حول ابنتها العذراء . وهى مع اقتناعها بفساد تلك المزاعم وثقتها بخلقه اضطرت محافظة منها على شرف ابنتها أن تقول لهم أنه خطيبها وسيتزوج منها عما قريب . وهى قد رأت فى عينيه تلك الأمنية وان كان يكتمها فى نفسه . وجم لهذا التصريح فما كان يدرى أن يصل الأمر الى تلك الورطة وأن تبلغ الجرأة بالأم الى أن تقيده بالزواج بغير علمه . أبدى لها أسفه لتلك الأراجيف التي يذيعها الجيران وأفهمها بأنه متزوج وله ابنة ، وما كان يفكر فى أن يتخذ له زوجة ثانية . ولكنها راحت تقول أنه رجل شريف ويجب أن ينقذ سمعة ابنتها ؛ وان (زينباً) كنز كبير فهى جميلة مدبرة وليس يضيرها أن تكون له زوجة أخرى مادامت تقيم بعيدة عنها .

ولم يمض اسبوع حتى عقد الزواج بينهما .

مضت هذه الحوادث فى سرعة الحلم . وكان اذا خلا الى نفسه مضى فى تعنيفها وأنكر عليها هذا التصرف ، وحيناً يرى أنه لم يأت أمراً اداً . فتعدد الزوجات أمر لا يحرمه الدين ومن من الناس لم يتخذ له زوجتين فأكثر . لقد عاشر زوجته الأولى اثنى عشر عاماً أخلص لها فيها الود وصبر على مرضها وبعدها عنه فى أكثر أيامها وما يظن أنه أثم باتخاذ زينب زوجة ثانية له

وقد رمتها الظروف فى طريقه . ستبقى هانم حيث هى فى قريتها التي تعزها وسيزورها ولا يقطع عنها مودته ، وستمكث زينب معه فى الاسكندرية يتذوق معها حياة هو أشد ما يكون شوقاً اليهـا الآن .

وانقضت أيام نعم فيهـا بعشرة الزوجة الجديدة حيناً نسى فيه قريته ومن فيها . وكان طبيعياً أن يتصل الخبر بهانم فتتحقق مخاوفها وتحزن لخيـانة زوجها ونسيانه لها . قاضته أمام المحـكمة فقضى لها ولأبنتها بنفقة شهرية . وقع تحت سحر زينب وسلطانها عليه فصار يذعن لـكل ما تشير به . حرضته على الخلاص من زوجته الأولى حتى لاتستمر عبئاً عليه بنفقتها ففعل وبعث اليها بوثيقة الطلاق . استتب لهـا السلطان وشعرت بنفوذها يقوى ويشتد فبـــدأت تتمرد ويظهر مافى خلقها من خشونة وسوء . كان يروضها على الطاعة فما كان يحسب أن تكمن كل هذه القوة فى ذلك الجسم الصغير الذى كان يعجب به ويستضعفه ولـكنها كانت كالجواد (الحرون) فى عنفه وجموحه . طأطأ الرأس كى يعيش ، فما كان بوسعه الا أن يرضى بها وان يترحم على سنين مضت لم يحس فيها يوماً بسيطرة امرأة عليه .

وفـكر فى أن يأخـذ ابنته (مريم) من أمهـا لتعيش معه فى الاسكندرية تخلصاً من نفقتها الشهرية ولـكى يفسح لزوجته الأولى الطريق فقد يرغب فى زواجها أحد .

انتزع الابنـــة من أحضان أمها وضمها اليه وهو لايدرى

أنه سيلاقى من ذلك كل الشقاء . ظن أن زوجته ستألفها وستعمل على تعليمها تدبير البيت ، وستجد فى شخصها مؤنساً لها فى وحدتها ؛ ولكنها تلقتها كما يتلقى السجان مذنباً كلف بتسخيره وتعذيبه . وأصبحت لاتقنع بما توقعه بها من عقاب لأتفه الأسباب بل تصر على أن تشكوها اليه فى كل يوم وأن تعمل على تعكير صفوه كلما عاد الى البيت . هو لا يدرى الآن كيف زعم ان الابنة ستلقى الراحة مع زوجة أبيها ؟ أليست هى ابنة ضرتها وان كانت قد طلقت منه . لاشىء يثير المرأة أكثر من أن ترى لها شريكة فى زوجها ؛ فهى تمقتها وتمقت سيرتها وكل مايتصل بها . وهل هنـــاك وسيلة للتشفى أيسر من أن ترى بين يديها ابنة غريمتها المستضعفة تنفث فيها سم غضبها ونقمتها . هى حلقة التعارف بينه وبين امرأته السابقة فهى تخشى أن يختصها بعطفه وتذكره اقامتها معه بأمها فيفكر يوماً فى العـــودة اليها ومعاشرتها من جديد . وها قد مضى على بنائه بها قرابة العام ولم تنجب له خلفاً فلا يبعد أن تزعم أن هذا عيب فيها لا يرضيه يزيده تعلقاً بابنته وتقديراً لأمها .

هذا كله وأكثر منه قد جرى ببال زينب بلا ريب تدفعها اليه غريزتها ، وليس فى طاقته ان يحملها على أن تبر بالصغيرة أو تحنو عليها . لقد وضع ابنتـه بيديه فى نار مستعرة لكى يقتصد نفقتها . شعر بفداحة عمله وأحس بقلبه يذوب شفقة على هذه الصغيرة التى لم ترتكب ذنباً تحمل من أجله كل هذا الشقاء .

كانت كالزهرة اليانعة يوم انتزعها من أحضان أمها لا تفارق الابتسامة فمها الصغير فاذا هي اليوم ذابلة ، ناحلة الجسم لا يعرف السرور طريقاً الى قلبها . وهو ان كان قد مسه الكثير من عنت زينب وسوء خلقها الا أن هـذا يجب أن لا يحمله أحد معه . لقد أجـرم فى حق ابنته وأساء الى المرأة الضعيفة التى خلفها محزونة فى القرية تندب حظها وتبكى ابنتها ، فيجب أن يكفر عن خطيئته ويعود بالطفلة الى حيث تجد الحنان وتنعم بالراحة .

* * *

ومضى الشهر مذ ذهب الشيخ عرفـة الى القرية ليضع الابنة بين يدى أمها . أتم مهمته وغادر القرية سريعاً فلم يحس به إلا القليل من أهلها . عاد يستأنف الحياة مع زينب وفى نفسه الكثير من الرضا بما فعل ، ويحمد الله فى سريرته لأن الطفلة باتت فى ملجأ أمين لا تعـود ترى فيه مايكربها . وان كانت ستحس فراغاً بحرمانها من أب يرعاها عن كثب ، الا أن أمها ستعوضها ماينقصها من حنانه . ولكن كان يأخذه العجب اذا انتبه لنفسه ورأى ما يسلك الآن من حياة ليس فيها من الهدوء والطمأنينة شيء برغم حرصه على توفير هـذا الهدوء وتلك الطمأنينة . ألم يقص ابنته عن منزله لأن زوجته لا تطيق بقاءها معها فلمَ اذن هذه الحياة المضطربة ولم هـذا الجو الملبد على الدوام ؟ حار فى تعليل تلك الظاهرة اذ كان يحسب ان ذهاب ابنته سيهدىء من ثورة زينب ويضع حداً لمتاعبه . ولكنه عاد يؤمن بأن النفس التى طبعت على الثوران لا تطمئن الى الهدوء

ولا تقوى على العيش فيه ، بل هى تخاق الثورة من العدم ارضاء لشهوتها . وهو لا ينكر أنه أيضاً قد تغير عن ذى قبل فلم يعد أمام زينب ذلك الزوج الضعيف الذى يقهر بسهولة . لم يعد يغفر لها تلك الهفوات التى كان يتسامح فيها من قبل يوم كانت له ابنة يزعجها وجودها ؛ ولكن وقد ذهبت الابنة فما الذى يحمله الآن على السكوت والرضى بمساوئها ؟ ضاق ذرعاً بذلك الوجه المعقد الذى يطالعه فى كل يوم وغدت الحياة مقبضة خانقة . تساءل مراراً عن مصيره وتراءت له حلول عدة ولكنه كان يرهبها ويخشى مغبتها ، وان كان فى بعضها الخلاص مما هو فيه . أيعيش الأزواج كلهم كما يعيش الآن وهل يصبرون على مثل هذه المكاره ويروضون أنفسهم عليها ؟ يبدو له ان الكثيرين لابد متعبون فالبيت لا يحتمل أن تبرز فيه شخصيتان فاما أن يسود الرجل واما أن تطغى المرأة . كلاهما ينشد هذه المنزلة ، والغلبة للقوى منهما . وهو قد أنس فى نفسه ضعفاً منذ اقترن بزينب وأدرك أنها تفوقه قوة وانه لن يحلم بما كان يستمتع به من سلطان على زوجته (هانم) . كان يخادع نفسه حينذاك ويعزو سكوته الى حرصه على كسب رضاها فى مستهل حياتهما الزوجية حيث يحلو للزوجة أن تتدلل وأن تسود بعض الشىء ، ولكنه فى صميمه موقن بأنه يصغر أمامها على الرغم منه . وجاء حادث ابنته ودخولها فى حياتهما فدفعه الاشفاق على الصغيرة أن يسترضى زوجته ويمد لها فى النفوذ علها تشفق على

ابنته وتعنى بتربيتها فاذا الحال تتبدل ، ويذهب ما بقى له من سلطان ضئيل ، واذا الابنة تسام الخسف أمام عينيه . ونشبت الثورة وانتهت بذهاب مريم ولكن بعد أن خلفت فى نفسه ذلك الشعور الذى يدفعه الى نشدان السلطة وعدم الاذعان لزوجته .

وكان طبيعياً أن تلمس زينب ذلك الروح الجديد فى سلوك زوجها . كانت تحسب انه سيظل آلة فى يدها تسيرها كما تشاء فاذا به الآن عنيد قوى . وهى حريصة على سلطانها لا تبغي أن تعلو كلمته عليها فيجب أن تقاوم وتسترد مكانتها . كم هى حانقة لذهاب مريم وافلاتها من يدها ، قد كانت سلاحاً قوياً تشهره فى وجهه فتحمله على الخضوع ، وكانت اداة للتشفى اذا حنقت عليه اقتصت منه فى شخصها . ولكنه عرف كيف يقهرها ويستل السلاح من يدها .

أصبحت لا تطيق أمراً يصدره اليها فهى تتمثل فى كل عبارة أسلوبا جديداً من التحكم يفرضه عليها . وتبرمت بوحدتها وأصرت على أن يأتيها بخادم تعاونها فى خدمة البيت فقال متهكماً :

ـ " سآتيك بالخادم ولكنها لن تصبر على عشرتك " .

وجاءت الخادم وكأنه تخيرها عنيدة نكاية فيها فلم تمكث بضعة أيام حتى هجرت البيت . أحست بهزيمتها المنكرة وهو يقول لها شامتاً :

ـ " ألم أقل لك ان الجن لا تطيقك ؟ " .

بذلك الشعور الذى يملأ نفسيهما مرت بهما أيام فيها نكد

وفيها عذاب . كل لصاحبه خصم يحرص على قهره لا ثقة بينهما ولا مودة . وجاءت عطلة الصيف فوجد فيها الشيخ عرفة مخرجاً لضيقة فهو لا يكاد يطيق البقاء بالاسكندرية . سافر الى قريته ترويحاً للنفس بعد أن ترك زوجته لدى أهلها . دخل القرية وهو يملأ عينيه من ذلك المحيط الرحب الذي يشتمله ويتنفس فيه بملء صدره . أهاجه الحنين الى تلك الأرض السمراء التي يقطعها على ظهر دابته ، وطالعته حقولها الى اليمين والى الشمال وقد امتلأت بالقمح الناضج اشتدت سنابله وقرب حصاده فشعر بقشعريرة ناعمة لذيذة تسرى فى جسده . أحس كأنه ينسلخ من حياته الصاخبة المختنقة وانه طليق يسبح فى وجود لا نهاية له . كانت عيناه تنتقلان فى سرعة من شيء الى شيء وقد بدا فيهما سرور واضح ، هو يريد أن يتعرف كل مكان وكل ناحية يمر بها كأنه قد غاب عن قريته أعواماً . هذا حقل الشيخ شعيب مأذون القرية يعرفه من شجرة الجميز الكبيرة التي تقع على حدوده وطالما جلسا تحتها يتحدثان سويا . وهذه أفدنة اخوته التى تتاخم أرض الشيخ شعيب وعلى رأسها ساقيتهم التى لا يراها تسير الآن . أحس برجفة تهزه فسوف يراه أحد من اخوته ويعجب لحضوره المباغت لهم وينعى عليه كتمان هذا الخبر . شعر أنه خجل من نفسه فقد شغلته حياته الخاصة المضطربة عن أن يراسل اخوته وان يكون منهم على اتصال دائم كما كانت الحال وقت اقامته فى طنطا .

حتى هذه الزيارة الأخيرة لم يشأ أن يعلنها اليهم . ولـكنه اجتاز حدود أرضهم ولم ير أحداً منهم فهدأ باله قليلا .

وأحب أن يطمئن على حالهم فهو لم يرهم مذ جاء الى القرية بابنتـه لشهرين مضيا فالتفت الى الصبي الذى استأجر دابته وهو يجرى خلفـه حاملا حقيبة ثيابه وقال :

ـ " انت ياواد تعرف عائلة الشاذلى " . فأجاب الصبى :

ـ أعرفهم جوى ياسيدى وأعرفك كمان .

ـ وازاى حالهم ؟

ـ كلهم طيبين .

وبات من مساكن القرية على مسافة قصيرة فأشتد خفقان قلبه . لم يفقـه سبباً لهذا الاضطراب الذى بدأ يستولى عليه ويقضى على السرور الذى كان يملأه منذ لحظات . صار يشتهى أن تمضى المسافة الباقية بسرعة وان لا يلتقى فى طريقه بأحد من أصحابه القـدماء فهو لا يدرى لم بات يخشى أنظارهم أن تقع عليه . هم لابد قد تحدثوا عن طلاقه لهانم وعن زواجه من امرأة حضرية واستنكروا هذا وذاك ، وانتشرت سيرته فى مجالسهم . فهو يعرف أن حدثاً كهذا لا يمكن أن يظل مكتوماً فليست زوجته الأولى بغير أهل يتعصبون لها ويشهرون بفعله . واذن سوف يلقونه بغير مااعتاد من ترحيب وتكريم ، وسوف لا يأمن أن يسمع منهم لوماً وتأنيباً . أقلقه هذا الخاطر وعجب كيف أقدم على الحضور وفاته أن يفطن لما قـد يلقاه فى قريته من روح

لا يرضيه . ولكن الأمر قد خرج الآن من يده وأصبح فى بطن القرية . حمد الله وهو يترجل عن الدابة أمام بيت عائلته اذ لم يصادف شخصاً ذا خطر فى طريقه . سر الاخوة برؤية أخيهم وقد فاجأهم بحضوره فهم يحبونه ويجلونه وان لم يكبرهم جميعاً . ولم يكن ما أتاه لينفرهم منه وان كانوا قد أسفوا بعض الشىء لما أصاب هانم وهى من ذوى ارحامهم . ولم تكن حال الشيخ عرفة لتخفى عليهم برغم ما اصطنع أمامهم من الهدوء وخلو البال . وكان أخوه الأكبر أشدهم ميلا اليها وتقديراً لظروفه . فهو أيضاً له زوجتان فى القرية يعاشرهما ويعدل بينهما بقدر مايطيق . واستطاع الشيخ عرفة أن يكسب عطفه يوم أتى القرية بابنته وأسر اليه بقصته وما يعانيه من زواجه الأخير . أشفق عليه حينذاك وقال انه لاينكر عليه أن يتخذ له زوجة ثانية وان كان لا يرضى عن طلاقه لهانم واختياره لحضرية لايؤمن جانبها ، وقد كان فى وسعه أن يجمع بين هانم وأخرى من بنات قريته .

وبعث الشيخ عرفة بمن يأتيه بابنته ليراها بعد ان استراح من عناء السفر . وجاءت مريم مسرعة فدهش الوالد لتغير حالها على قصر المدة التى غابت فيها عنه . وجه متهلل ينطق بما فى نفسها من سرور وغبطة ، وجسم تبدو فيه مظاهر الصحة والعافية . أخذها فى أحضانه ونفسه يغمرها مزيج من السعادة والألم . السعادة لما تستمتع به الصغيرة الآن من هناء فى كنف أمها ، والألم

لمـا مر بها من جور يوم كانت فى ظله . ولـكن أتراها تحمل له بغضاً لما نالها وأمها بسببه ؟ أم قلوب الصغار تبقى صافية لا يعلق بها حقد ؟ هو يحس بأنها لاتزال تحبه فهى قد أسرعت الى لقائه وارتمت على صدره ضاحكة . وهو لهـــذا سعيد مغتبط برغم مايحز فى فؤاده من حسرة .

وقضى الليل ساهداً يتقلب على الفراش تزدحم الخواطر فى رأسه وقد أثارتهـا هذه القرية بذكرياتها وبمن فيها من أهل وولد . أمضته تلك الخواطر وأرهقت أعصابه وأثقلت قلبه بالهم ، حتى اذا تصايحت الديكة وأعلنت حلول الفجر دب النعاس فى عينيه ونام . وعلى مقربة منه فى الغرفة الثانية كانت تنـام أيضاً مريم بين بنات أعمامها حيث طاب لها أن لا تفـارق أباها فى ليلته .

❊ ❊ ❊

هدأ بال الشيخ عرفة وقد لقى من أصحابه فى القرية ماعتاد من حفاوة واكرام . لم يحدثه أحد فى شأن زواجه وان كان قد لاحظ بعض الأعراض من أهل زوجته الأولى . لم يدرك أن الفضل فى الدفاع عنه والذود عن سمعته عائد الى جهد أخيه الكبير الحاج مأمون وكيل العمدة . فقد استطاع بشخصيته ونفوذه أن يحتفظ بمكانة أخيه بين أهله وأن يرد عنه ألسنة المتقولين . وكان حادث اعادة مريم لأمها سبباً فى تقديرهم ذلك الصنيع منه .

اندمج الشيخ عرفة فى تلك الحياة التى كان يألفها ويحبها من قبل . حرص على أن يجـــرد نفسه من كل الشواغل والهموم ويلقيها عن كتفيه . وأن يفنى فى ذلك الهدوء المريح وينسى فيه

ماضيه القريب . أفلح فى بعض محاولته وان كان يتراءى له طيف الماضى كلما شاهد ابنته بين يديه . شعر مراراً بما يدفعه الى سؤالها عن أمها وعما انتهى اليه مرضها فكانت تجيبه أنهـا لم تعد تشكو ألماً . كان يرتاح الى ذلك ويوصى ابنته أن لا تنقل اليهـا مايدور بشأنها من حديث . وليس يدرى أكانت مريم تعمل بوصيته أم تبوح لأمها بكل شىء . ولكن لمَ يخجـــل من أن تعلم بسؤاله عنها ؟ أليس لتلك العشرة الطويلة الماضية حق الرعاية والاقرار بالجميل . وهى فى شخصها كانت عزيزة لديه لم ير منها مايؤذيه أو يغير من قلبـــه نحوها بل هو المعتدى الذى لم يرع عهده معها . ولكن لمَ لا ينفك عن التفكير فيها برغمه ؟ مايحسب ان يدرك المرء قيمة شىء ووفـرة مزاياه الا أن يدعه ويستبدل به غيره . ذلك التبـديل يسفر عن نواح من النقص والكمال قد تـكون خافية عليه . وهو قد أمتحن بعشرة زينب وخبر طباعها فبـان له ما كان فيه من سعادة مع زوجته الأولى ماأحس بقيمتها إلا الآن .

هذا كله بدأ يعصف بهدوئه . وأزعجه يوماً أن رأى الأيام تطوى على عجل ولم يبق على انقضاء العطـــلة غير اسبوعين . ازداد به التفكير وهو يعلم ماينتظره من حياة ثائرة بعد عودته الى الاسكندرية .

وكان بالأمس يجالس صديقه الشيخ شعيب مأذون القرية ففطن الى قلقه وتشتت حواسه فقال له مشفقاً وهو يعلم كل قصته :

ـ " ما أحسبك الا متألماً لفراق هـذا البلد، كارهاً ما أنت

مقبل عليه من حال لا يرضيك . أنى لأعجب للمتعب يشكو حمله وفى مكنته أن يرتاح . ما الذى يحملك على أن تئن من عبئك وفى وسعك أن تلقيه عن كتفيك ؟ انك الرجل الذى لا يقهر ولا يغلب على أمره فكيف تستبد بنفسك وبحريتك امرأة وقعت فى طريقك فأكرهت على التزوج منها وهى ليست من معدنك ولا من بيئتك ؟ ماأيسر أن تخلى سبيلها فتهدأ نفسك ويطمئن بالك . "

نظر اليه الشيخ عرفة طويلا ثم قال :

ـ " أتحسب ماتشير به هيناً ؟ ألا تدرى أن من العسير على المرء أن تظل حياته مذبذبة وان يعمد الى انتخاب زوجة فى كل يوم ؟ . ألا تعلم أنى ما أزال نادماً على أخذى لزوجتى الثانية فكيف تدفعنى الى التفكير فى أخرى ثالثة ؟ "

ضحك الشيخ شعيب وقال :

ـ " ماقصدت أن أعقد من أمورك وأحرضك على التزوج من ثالثة ... بل انى أود أن أختصر معك الطريق وأعود بك من حيث بدأت ، فتترك الزوجة الحضرية وتعود الى هانم أم طفلتك . "

سكت حينذاك وان كان قد شعر بأن هذا الحديث قد فتح أمامه سبيلا جديداً للتفكير . والآن وهو مضطجع فى فراشه بعد الغداء هرباً من قيظ النهار ، أخذ يراجع حديث الشيخ شعيب ويفكر فيه . كثيراً ماجرى بخاطره أن يطلق زينب ويستريح

من عشرتها ولكنه كان ينبذ ذلك الحل حرصاً منه على سمعته وخوفاً من أن يكره يوماً على الزواج للمرة الثالثة . ولكن ها هو الشيخ شعيب يهون عليه الأمر ويدفعه الى التخلص من همومه والعودة الى أم طفلته . هو لا ينكر ان هذا الحل الأخير لم يخطر بباله ولكنه يعجب كيف أصبح راضياً عنه كل الرضا ويتعجل فى تنفيذه . هو لا شك يحب (هانم) برغم انصرافه عنها ، وقد أيقظ ذلك الشعور عودته الى القرية وما أثارته فى نفسه من ذكريات غالية هنيئة . أدرك السر فى تكرار سؤاله عنها وفى ازدياد تعلقه بابنته وحرصه على أن يراها فى كل يوم ، وهى صورة مصغرة لأمها بوجهها الحمرى ، وعينيها السوداوين . ولكن أتقبل هانم أن تعود اليه وتقنع بما نزل به من جزاء ؟ هو يعرفها طيبة القلب ، سليمة الطوية ، وستغفر اساءته اليها من أجل ابنتها .

* * *

ولم تنقض العطلة حتى شاع السرور بين أهل القرية برجوع الشيخ عرفة الى زوجته الأولى . وبعث المأذون بوثيقة الطلاق الى زينب .



